

الفصل الثالث

قضايا الاختراب اليتافيزيقي في شعر أبي العلاء

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر البنيث
لفقدي ناظري، وأروم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

اعتبر أبو العلاء فقد البصر أول سجونه، وعده مخضه إلي عوالم العجز
والقيد والتوقف، التي انتهت به إلي التأمل الواسع في وجود الإنسان الذي رآه
أبو العلاء وجوداً مقيداً في هذا الكون

كان فقد البصر أول عزلة عرفها أبو العلاء المعري، إذ حال بين الحياة
السوية وبينه، ومن ثم بينه والأحياء، فكان تعرفه علي الحياة المحيطة تعرفاً
يتحكم فيه إحساس وعقل معزولان عن الحياة بحكم العاهة، معزولان في المهما
رغم كل الصخب المحيط بهما... وقد زاد أعوجاج الحياة أو أعوجاج العالم
الخارجي من هذه العزلة الداخلية، حتى تبلرت في شكل عزلة مادية عن
الخارج، مما فتح الباب واسعاً للتأمل في كنه وجود الإنسان في الكون.

لذلك نعتقد أن رحلة بغداد- بما تضمنته من حادثة موت الأم- لم تكن
العامل الوحيد الرئيسي المباشر الذي دفع أبا العلاء إلي تلك الحياة الخاصة، بل
كانت تلك الرحلة بأحداثها بمثابة الرجاج الذي أغلق به أبو العلاء الباب بينه
وبين أية محاولة لمهانة الحياة، أو الصبر علي الواقع... والتظاهر بالقدرة
عليه.

نقول ذلك لأن رحلة بغداد سبقت بتراكمات هائلة وبمخزون واسع من
الألم، والشعور بالإخفاق والعجز والفشل، فأكدت له هذه الرحلة وأكد له فقد
أمه في تلك المرحلة الحرجة من حياته أنه لن يكون الأقوى في هذا الصراع
الضاري بينه وبين الحياة

.. كانت الأحداث الأخيرة رموزاً عميقة، شكلت مع تلك الموروث
المتراكم الكئيب الذي أخره أبو العلاء من معاناة فقد البصر- شكلت دافعا
منطقياً نحو حياة غاية في الخصوصية.. والعمق.. والاضطراب " أن أبا العلاء
لما عبر إلي بغداد اجتاز في طريقه وهو راكب علي جمل بشجرة، فقيل له.
طاطن رأسك، ففعل وأقام ببغداد مدة إقامته بها. فلما عاد من بغداد إلي معرة
النعمان. اجتاز بذلك الموضع، وقد قطعت تلك الشجرة. فطاط رأسه. فسئل عن
ذلك، فقال ها هنا شجرة، فقيل له ما ها هنا شجرة فقال بلي، قد كان ها هنا شجرة

حين عبرت هذا منحدرًا إلى بغداد، فحفروا في ذلك الموضع فوجدوا أصلها"^(١)... أن قولهم "طأطن رأسك" قد حفر في ذاكره أبي العلاء للفظته، ونكاته. كما يريد القدماء أن يثبتوا من خلال هذه القصة... بل لتكبابه علي كل ما يمثل له خفضًا للرأس، أو ألما وعجزًا.. ولأنه عاد من بغداد حاملاً هذا الشعور، باحثًا عن معادلة الموضوعي في الموقف والأحداث والرموز...

إن " داخل" أبي العلاء الكئيب لابد أن يحتفظ بمثل هذه المعاني، وأن عودته من بغداد لتحمل أحداثًا ورؤى ربما كانت غير رئيسية في ظاهرها لكن الأديب الوجودي لا يتخذ من الأحداث رموزًا وعلامات علي الجوهر الباطن في أعماق الوجود كله، فالأمر الذي يحياه في لحظة، هو ألم مرفوع إلي أس السرمدية، والانتفال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدد... سرعان ما يفتح علي الوجود الواحد بأسره، وهذا هو ما يميز الأديب الوجودي بحق. فكأن من حدث تافه عند الناس، يصبح لديهم حدث الأحداث، لا لمبالغة في تقديرهم.. أو لافراط في التخيل الجامح لكن لأنهم يقولون مع جيته. " كل حادث رمز" فما بالك وقد لقوا في دنياهم عننا ليس بالهين"^(٢) وأبو العلاء يحمل كثيرًا من هذه السمات النفسية^(٣).

والتجارب لا تصبح بين يوم وليلة مخزونا للثراء والتأمل.. أو مطية سهلة لانتهاج العمق ونكاء الروع، بل تتدرج في تأثيرها من المرحلة البدائية- مرحلة استقبال الحواس للتجربة- وهي مرحلة انفعال واهتمام وقلق أي مرحلة حيرة..- تتدرج التجارب من هذه المرحلة- إلي مرحلة الإدراك " فيتأثر الإدراك بموقف الإنسان من للنسئ المدرك، ويؤثر في تطلعاته ورغباته ومشاعره ومتطلباته ومصالحه واهتماماته.. ويلعب الإدراك دورا كبيرا في عملية معرفة للعالم المحيط.. وهو يشكل إلي جانب صنيع الانعكاس الحسي (مثل الإحساس والتصوير) ما هو أشبه بالنسيج الحي لمعارفنا، فبفضله يعكس شينا الإنسان العالم المحيط بكل تنوعه وغناه. والإدراك كونه دوما معقولا واعيا يمثل بدوره

(١) أبو العلاء المعري/ اللزوميات. تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي. منشورات مكتبة الهلال بيروت. مكتبة الختجي. للقاهرة. ص١٨٨.

(٢) ابن العديم / الاتصاف والتحرى. تعريف القدماء بأبي العلام. جمع وتحقيق لجنة من وزارة المعارف العمومية ببارت دطه حمين مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ص ٥٥٩.

(٣) أبو حيان التوحيدي. الإشارات الإلهية تصدير عام بقلم د عبد الرحمن بدوي ص ٦

الركيزة الحسية التي للفكر مجرد لتكوين المفاهيم" (١).

وإذا أدرك المغترب رأي العالم رؤية جديدة.. وشكله في تشكيل خاص به، وأصبح له موقفا من الأشياء .. ربما تكون بدايته الثورة التي " هي إحدى للمواقف الفلسفية الوحيدة المتماسكة، أنها المواجهة الدائمة بين الإنسان وغموضه .. والإصرار علي شفافية ووضوح مستحيلين، وذلك الموقف يتحدى العالم من جديد في كل ثانية.. أن تلك الثورة هي يقين المصير الساحق بدون الاستسلام الذي كان يجب أن يرافق ذلك اليقين" (٢).

وإذا كان الأكم الشخصي في حياة أبي العلاء أول باعث نحو الحياة الشعورية العميقة.. والتأمل الواسع.. فأننا لا يجب أن نفعل دور المجتمع في تنكية هذا الأكم وإنضاجه، وفي تهيئة التنوع الثقافي والمعرفي.. أن المجتمع كما قدم الأكم لأبي العلاء المعري، منحه واقعا يختلط فيه الجدل بالرواية والعربي بالأعجمي.. تختلط فيه الديانات واللغات والأداب والمعارف وكل ما يخلق حياة ثرية، إذ" قضى شاعرنا نحو النصف من عمره في القرن الرابع الهجري، والنصف الآخر في القرن الخامس، فيكون قد عاصر للثقافة الإسلامية في عنفوان نشاطها في ذلك العهد.. كان في العالم الإسلامي ثلاث حواضر كبرى: بغداد عاصمة العباسيين.. والقاهرة عاصمة الفاطميين وقرطبة عاصمة الاندلسيين.. علي أن الحركة الفكرية لم تنحصر في هذه للحواضر الثلاث- فقد نشأت- كما يخبرنا للتاريخ - دول صغرى نافست هذه للدول الكبرى في العطف علي أهل الأدب والعلم.. وكانت حواضرها مراكز علمية كبرى تبذل فيها الأموال الطائلة في سبيل العلم والعلماء.. وقد حدا ذلك كثيرين إلي التنقل من مدينة إلي مدينة طلبا للدرس علي بعض الأساتذة المشهورين، أو ... انتجاعا للعلم في بعض المكاتب الكبرى.. وفيه بلغت العلوم الدخيلة من طبية وفلسفية ورياضية وطبيعية، أوجها ويكفي أن نذكر منها، من رجالها السابقين واللاحقين: الفارابي، والرازي، وابن سينا، وأخوان الصفاء، عدا من نبغ منهم في بلاد الأندلس، كذلك علم الكلام الذي بلغ أوجه في الغزالي (ولد بعد سنة من موت المعري) ونشير إشارة خاصة إلي المذاهب المتنازعة من خوارج وشيعة، ومعتزلة، وأشعرية وصوفية، فقد كانت علي أشدها في عهد المعري.. وما

(١) للمعجم للفلسفي المختصر / ص ١٨، ١٩ بتصرف.

(٢) أسطورة سيزيف ص ٦٣ بتصرف.

وقد أدرك أبو العلاء عصر العلماء بحق، فمن أعلام الفكر الذين توفوا قبل ولادته: الفارابي والطبيب الرازي، والمؤرخ المسعودي والاصطخري الجغرافي، وابن حوقل، كما عاصر أئمة آخرين مثل ابن سينا، والبيروني ومحمد ابن حزم.. كذلك أطلع المعري علي آثار اسحق ابن حنين، وعلي ترجمات قسطنطين بن لوقا، ومؤلفات الكندي، والحلاج وابن الراوندي (٢) وغير هؤلاء في كل علم.. فقد كانت " المكتبة العربية قد زخرت في عصر الترجمة الكبير، أي في القرنين السابقين بعيون التراث اليوناني والفارسي ونتيجة لفتح الثقافة العربية للثقافتين: اليونانية والفارسية ظهرت في العالم الإسلامي تيارات فكرية متضاربة، بعضها عقلاني وبعضها روماني ولكنها برغم تضاربها كانت تمثل حالة ازدهار ثقافي عظيم" (٣).

وقد أضيف هذا الازدهار إلي ثراء واسع في الفرق الإسلامية والمذاهب الفكرية المنتشرة في مجتمع هذا الوقت. فنجد الصوفية والفقهية والباطنية والكلامية. والجماعات الفكرية ذات التأثير القوي كجماعة أخوان الصفا وغيرها.

وقد اختلفت هذه الفرق وهذه المذاهب فيما بينها- بالطبع في الاتجاه الفكري.. وفي طرق الاستدلال والنتائج.. بل اختلفت أيضا في المنبع الأساسي الذي تستقي منه أصولها ويمثل المؤثر الأول عليها كذلك كان لامتزاج الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية بالفكر الإسلامي نتائج ثرية متنوعة، وكانت لفلاسفة المسلمين طريقتان: أحدهما لم يتقيد أصحابها بدين، ولا غيره، وإنما جعلوا العقل هو المتصرف المطلق ومن رؤساء هذا الفريق: الفارابي وابن سينا، وقد شد أهل هذا المذهب في كثير من القضايا عن سنن الإسلام. فأثبتوا كثيرا ما نفاه كحشر الاجساد، ولذلك رمي أكثرهم بالإلحاد والزندقة، والثانية: أراد أصحابها أن يوفقوا بين الدين والفلسفة.. وتكفوا لذلك وجوها وفقوا في بعضها دون بعض آخر، ومن هذا الفريق علماء الكلام، فأنهم حاولوا ذلك في

(١) أنيس المقدسي/ بيئة المعري وأثرها في شعره مجلة الهلال يونيو ١٩٢٨م ص ٩٦٤ بتصرف

(٢) - لويس عوض/ علي هامش الغفران / كتاب الهلال. أبريل ١٩٦٦م/ ص ٨٠

(٣) د لويس عوض/ علي هامش الغفران/ كتاب الهلال. أبريل ١٩٦٦م/ ص ٨٠

كثير من المسائل فأرانا أن يسيروا الفلسفة وراء الدين، ومن رجال هذه الطريقة. الأشعري والماتريدي، والباقلاني، والاسفراييني، ومن رجال هذا الفريق: المتصوفة.

ونذكر صاحب الذكرى. أن الفلسفة الصوفية تتألف من عنصرين يونانيين أحدهما وحدة الوجود، والثاني هو الإشراق، وهذا المذهب هندي، وهذان العنصران نقلا إلي المسلمين في القرن الثالث، وأضيف إليهما شئ من ظاهر الدين، فنشأ مزاج خاص أظهر الحلاج والجنييد وغيرهما من متصوفة القرن الرابع والمتصوفة أقرب إلي الشيعة منهم إلي أهل السنة، فظهر فيهم مذهب الباطنية، وكثر تأولهم للكتاب والحديث، وانتشر مذهبهم في العامة. فإدي إلي فنون من الإباحة ومخالفة الدين..^(١)

أن عصر أبي العلاء كما ذكرنا في الفصل السابق من هذه الدراسة كان عصر ثورة عقلية وجموح فكري، وتمرد علي كثير من المسلمات، ومن ثم إخضاع كل تقليد ومألوف للشك والبناء الجديدين.. ولعل محنة الحلاج ومحنة المعتزلة تمكنا من أدراك حرية الفكر في هذا العصر. ومضير هذه الحرية إذا ما ارتطمت بمصالح الحكم، أو جمود الحاكم وضيق أفاقه.

وجد أبو العلاء وسط هذا الضجيج، وهو الشاعر الذي خلق منه عجزه الجسدي إنسانا ذا طاقة كبيرة من العمق والتأمل والحساسية والميل إلي إخضاع الحياة للتساؤل والفكر والتحليل، فكان الامتزاج بين محنة البصر وأثارها النفسية، وبين ما زخر به مجتمع أبي العلاء من ثراء معرفي فكري.. وكانت حصيلة هذا الامتزاج أن أصبح لأبي العلاء توجهها ثقافيا خاصا وانتقاء مميذا للمعارف، وتمثلا متفردا للقضايا والمواقف والروى.

وندهش إذ نرى كثيرا من الباحثين والدارسين يأبى إلا أن يدرج أبا العلاء- أو علي الأدق آراء أبي العلاء- تحت مذهب فكري بعينه، أو فرقة بذاتها مما ضم هذا المجتمع. وقد استند أصحاب هذا الرأي إلي أنه " لا جرم اتصل بالفكر من أقطاره، وفعلت فيه طائفة تلك الأفكار فعلها"^(٢) فهناك من رأي أن الأسس التي بني عليها فكر المعري إنما ترجع إلي أخوان الصفا، ورمزية

(١) محمد سليم الجندی للجمع في أخبار أبي العلاء المعري وأثاره مطبوعات المجتمع للعلمي العربي بدمشق ج١ ص ١٥٢، ١٥٤ بتصرف

(٢) عبد الله العلابي المعري تلك للمجهول /ص ١٨

الباطنية الحرفية، وتأوج البحث اللغوي^(١) وهناك من أشار إلي اتصال أبي العلاء بالمعتزلة، وتردده علي مجالس الحسن البصري^(٢) كذلك هناك من أشار إلي اتصاله بالشيعة المعتزلة عن طريق بني حمدان وأشار إلي بغضه للباطنية لغولها في عزل العلم والعقل والاجتهاد عن الدين.^(٣)

طائفة أخرى من الآراء تميل إلي تأكيد الفلسفات الشرقية في فكر أبي العلاء، خاصة الفلسفة الرواقية^(٤) التي نادى "بترويح التأمل الهادئ لظواهر الحياة، وبالدعوة إلي الطمأنينة وعدم التأفف والتذمر وأكدت ضرورة ثبات المرء وصلابته في الدفاع عن الحقيقة، وانتصاره علي الآلام وازدرائه للملذات، ودعا فلاسفة الرواقية الرومان إلي الاهتداء بالعقل لا بالاهواء، والابتعاد عن مظاهر التبجيل الخارجية، والاذعان للقدر"^(٥).

ولعل النظر إلي جوهر هذه الفلسفة فقط يكاد يجزم بعدم تأثيرها في فكر أبي العلاء، هذا الجوهر هو: استقبال الحياة بهدوء والأعراض عنها باطمئنان. فقد كانت حياة أبي العلاء علي النقيض من ذلك تماما كما يبين شعره. وغير الرواقية يري البعض أن أبا العلاء قد تأثر بالفلسفة اليونانية في تشكيل رؤيته للفعل الإنساني^(٦).

أما الطائفة الثالثة من هذه الآراء فهي تجعل لرحلة بغداد إلي الطولي في توصيل أبي العلاء. بكثير من التيارات الفكرية في ذلك العصر^(٧) لكن رأي عميد الأدب العربي د. طه حسين يخالف هذه الآراء حين يري أن استكشاف أبي العلاء لسجنه قد تم قبل سفره لبغداد، وعلي وجه التحديد في الثلاثين من عمره، وأن تفكيره الفلسفي قد ظهر في رثائه لابيه^(٨).

(١) السابق / ص ٢٦، ٢٧، ٢٨.

(٢) د. كمال اليازجي. أبو العلاء ولزومياته. دار للجيل بيروت. لبنان ط ١٩٨٨ م / ص ٤٠، ٤١.

(٣) د. لويس عوض. علي هامش الغفران. ص ٨٧، ٨٨.

(٤) د. عبد الوهاب عزام. بين أبي العلاء والخيام. مجلة الهلال. يونيو ١٩٢٨ م / ص ٨٨٨.

(٥) المعجم الفلسفي المختصر / ص ٢٤١.

(٦) د. عبد القادر زيدان. قضايا العصر في أدب أبي العلاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ م. ص ١٢٧.

(٧) د. حماد حسن أبو شلوش. شعر أبي العلاء في الدراسات الحديثة / ص ٣٠.

(٨) د. طه حسين. مع أبي العلاء في سجنه / ص ٥١، ٥٢.

ويجمع كل هذه الطوائف من الآراء رؤية واحدة. هي أن بيئة أبي العلاء هي التي شكلت نظراته الفكرية- وتحكمت في وجودها ونوعها وبلغ إيمان أصحاب هذا الرأي برأيهم إلي حد اعتقادهم بأن أبا العلاء لو نشأ في الحجاز مثلا لاختلقت نظرته إلي الحياة.^(١)

في مقابل هذا طائفة من الآراء تنكر التأثير القوي للبيئة الفكرية في حياة أبي العلاء العقلية^(٢). وتستند في إنكارها علي كثير من الأدلة. ويتوسط الطائفتين فريق " يقول بأن امتزاج الفطري والمكتسب في حياة أبي العلاء المعري وجهه إلي التأمل الميتافيزيقي^(٣).

ونزعم - كما قلنا من قبل- أن الأساس في توجه الإنسان - أي إنسان- إلي العالم المحيط به: تجربته الذاتية مع الحياة، واحتكاكه الأول بهذه الحياة الذي يحدد كيفية استقباله للموجودات المادية والمعنوية ويحدد أيضا نتائج هذا الاستقبال. ومع استمرار الحياة، وتواصلها يضاف إلي هذه التجربة المحورية في حياة الفرد، عوامل أخرى بلا شك، لكنها في الغالب لا يتم اختيارها إلا من خلال تلك التجربة المحورية وذلك الاحتكاك العميق الذي تكشف من خلاله الوجود... فتتحكم هذه التجربة. خاصة إذا كانت مريرة- في كل ما يضاف إلي الذات من خبرات وثقافة ومعرفة وتوجه عام إلي الحياة، فيكون هذا التوجه أما معضدا من وجود الأزمة وهيمنتها علي حياة الفرد، ولما متصديا لها، ومن ثم تتشكل نظرة الفرد إلي للحياة من واقع محتته هو أولا، ومن واقع ارتباطه الشديد الخصوصية بالواقع، وليس العكس.

إن أبا العري الذي ابطل بفقد بصره مبكرا، وواجه ذاته أول ما واجه في الحياة وتجاوز معها أكثر مما تجاوز مع غيرها، لن يستطيع أن يطالع النتائج الثقافي لمجتمعه أو أن يستقبل الأشياء بأي ردود للفعل إلا من خلال هذه المحنة أولا... وليس معني هذا أنه لن يقرأ أو يسمع أو يتلمس إلا ما هو منتم لبيئة كف البصر مباشرة، بل معناه أنه- بطريق غير مباشر، وعي لم لم يع- لن يستقبل إلا

(١) تور الدين يوسف نور الدين/ الشعراء الثلاثة دار الاصدار ص ١١٨.
(٢) شعر أبي العلاء المعري في الدراسات الحديثة/ ص ٨٣، وكذلك ذهب إلي ذات الرأي محمد فريد وجدى في / نصيب للمعري من الفلسفة للشرقية للهالك يونيو ١٩٣٨م، ص

(٣) لئيس المقنسي بيئة المعري وأثرها في شعره الهلال يونيو ١٩٣٨م، ص ٩٦٤

ما يناسب هذه المحنة، ولن يقر داخله إلا ما كان يبحث هو عنه، وأبو العلاء لم يكن يبحث إلا عن تفسير لمحنة فقد البصر والأل من حكمة وجوده علي هذه الشاكلة، وحكمة وجود كل نقصان مهما تضاعل أو تعاضم...

لذلك فهو- بالطبع- غير منعزل عن اتجاهات عصره الأدبية والفكرية والدينية وغيرها، بل لقد مارس كل هذا واختلط به، وأخذ منه ما يوافقه ثم مزجه ببصمته الخاصة ومعاناته الفردية وخلق من الجميع توجهها علانيا مميذا إلي كل الأشياء والقضايا.

فأبو العلاء- في زعمنا- لم ينتهج أي سلوك فكري إلا سلوك محنة فقد البصر، وما يترتب عليها من عزلة نفسية، دافعة إلي التأمل، نقول هذا الزعم علي الرغم من تشابه بعض الظاهر من آرائه مع بعض لتجاهات المجتمع السائدة، لأن هذا للتشابه جزئي ظاهري متولد من قبيل تتامخ الفكر البشري في مسيرته، ومن أن تاريخ هذا الفكر لا يتغير في الجوهر، بل يتغير ثوبه الخارجي فقط.. وهو أيضا تشابه من قبيل ما يقوله للمثل للفرنسي " ما للبيث إلا عدة خراف مهضومة".

وإذا كان عصر أبي العلاء بكل ما فيه من ثراء واضطراب مهينا للفكر الفلسفي والتأمل الوجودي، والإحساس " بصدأ العيش" (١) فهو لم يهني كل من فيه لذلك، ولم يكن كل العصر وكل من فيه مختربين كأبي العلاء- أو كغيره من أصحاب المعاناة والرؤى والفكر- لأنه لا بد من بيئة داخلية قابلة للعمق والتأثر... فكثير من الناس يعيشون الألفة والاعتیاد في الحياة، ويقتنعون بالمألوف" أن ما يعمله الإنسان، ويسمي إليه، يحققه ويناله بجهوده.. وهلدرا لن يقول مشيرا إلي التباين للصارخ ومع ذلك فكل أولئك لا شك لا شأن له بمادية مقامه علي هذه الأرض، وكل أولئك لا يصل إلي صميم الوجود الإنساني". فهذا الوجود في صميمه شعري" ولكن ما نعيه بالشعر الآن إنما هو التسمية المنشئة للآلهة، مادية الأشياء" وأن نعاني مجاورة الأشياء في لبابها، وماهيتها" (٢) ولا يتأتي هذا إلا من خلال مواجهة حادة مع الحياة.

وقد كان فقد البصر في حياة أبي العلاء المعري هو تلك المواجهة

(١) أدونيس متحمة للشعر العربي دار العودة. بيروت ط٤ ١٩٨٢م ص ٣٩.

(٢) مارتن ميذجر/ في لفلسفة والشعر/ ص ١/ ١٩٦٣م/ ص ١٠.

الحادة، كان ارتطاما محوريا بمعنى الوجود ذاته، لذلك كان أول هم ميتافيزيقي يتولد من تلك المحنة هو هم البحث عن الحقيقة الذي نعتبره أول محور موضوعي من محاور قضايا الاغتراب الميتافيزيقي في شعر المعري

البحث عن الحقيقة:

وقد تطور هذا الهم- أو تلك القضية الميتافيزيقية- في فكر أبي العلاء فلم يعد مقتصرا علي البحث عن حقيقة فقد البصر وأسبابه، فقط بل تسامق ليختلط بهموم الإنسان العامة.. وفلسفة وجوده في الحياة.

فيتساءل أبو العلاء عن أسرار المجرى والرحيل، أشجان العناء الإنساني المتواصل، أحاسيس الإنسان وعقله، ماهية الخيوط التي تربط بينه وبين نفسه، وبينه والكاننات الأخرى، بل بينه والمطلق أيضا. ولأن الشاعر هو " من شعر بجوهر الأشياء" فقد تجاوز اغتراب أبي العلاء أطر المألوف، وسطح الأشياء إلي الجوهر، وكانت الحقيقة أولي قضاياها الميتافيزيقية وفتحة صومه الفكرية.

لعل نجوم الليل تعمل فكرها لتعلم سرا، فالعيون سواهد^(١)

تخطت عين أبي العلاء مصيرها الفردي المخفق لتبحث في الالهيات^(٢) مصدر النفس، الزمان والمكان، أصل الكائنات، سر التاموس الكوني، وكل ما يتعلق بمصير الكائن الحي في الوجود.

حاول أبو العلاء أن يخضع هذه المسائل للعقل البشري والقدرة البشرية، لكنه ارتطم بحاجز المحدودية: محدودية العقل الإنساني والقدرة الإنسانية جمعا، لأن هذه المعاني ليست ثابتة، ولأن الحقائق العظيمة دائما تتأرجح بين الشك واليقين، ولأنه من الصعب علي الإنسان أن يجد حقيقة مطلقة- عدا وجود الله سبحانه- يستطيع أن يتلمسها بأصابعه الصغيرة المرتعشة، يقول المعري مصورا اضطراب فكره في حقيقة الوجود :

ويعترى النفس إنكار ومعرفة وكل معني له نفي وإيجاب^(٣)

(١) ل/١/٢٢٨.

(٢) أبو العلاء ولزومياته وقد حصر المؤلف هذه الالهيات التي وجدت في شعر أبي العلاء المعري في صفحات كتابه من ص ٥٨١ - ٦٣٠.

(٣) ل/١/٧٨

كان صدام أبي العلاء مع هذه المسائل هو أنه أصر على بشرية الأشياء والمعاني. والانتحار العقلي ليس إلا محاولة تقليص الأشياء إلي بشريتنا^(١) أو الارتفاع الوهمي إلي أبراجها لملامسة أسرارها.

وقد فات المغترب أن الحقائق في عملية المعرفة مطلقة ونسبية، وأن العالم حوله غاية في التعقيد والنمو والانتساع^(٢) بما يتعذر معه المعرفة المطلقة التامة.

لذلك كله لم يكن القول باللا أنرية^(٣) ليكفي أبا العلاء كنتيجة من نتائج الارتباط الفاضل بالحقائق المطلقة، بل كانت النتيجة الوحيدة الطبيعية هي أن يطبق علي أبي العلاء ظلام كثيف، هذا الظلام هو ذات البيئة التي ألمته، وهي الرحم بالنسبة له في ذات الوقت.. أن اظلام عينه جعل من كل ظلام لغة تعبير مناسبة عن سقوطه وعجزه.. فقد رافقه أنن هذا الظلام في تجربته الحياتية الخاصة، وفي رؤاه الميتافيزيقية.

عللاني ، فإن بيض الأماني فنيت ، والظلام ليس بفان^(٤).

أن طلب الحقيقة في الظلام يجعلها أكثر استعصاء.. وقد طلب أبو العلاء حقائق الوجود انطلاقاً من إحساسه الحاد بفقد البصر، من واقع ألم شخصي لا من واقع مجرد ، لذلك صعب عليه كل شيء:

وكم طلبت أمورا لست مدركها تبارك الله من أغراك بالطلب^(٥)

ويري أبو العلاء الظلام شاملاً تاريخ البشرية كله، هذا التاريخ الذي يبدو وكأنه رحلة في قفر لا دليل به^(٦) وأبو العلاء لم يتيقن إلا من حقيقتين اثنتين فقط: وجود الله^(٧) وموته الشخصي الذي هو موت الإنسان في عمومته، وهاتان الحقيقتان يجمعهما أمر واحد: تناهي البشرية وضعفها العظيم:

(١) أسطورة مزييف/ ص ٢٦.

(٢) المعجم الفلسفي المختصر/ ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٣) أبو العلاء ولزوميته / ص ٥٨١، ٥٨٢.

(٤) أبو العلاء المعري/ ديوان سقط الزند/ طبعة بيروت / ص ٩٤.

(٥) ل ١/ ص ١٢٠.

(٦) ل ١/ ص ١٥٣.

(٧) د صالح البيضي. للفكرة والفن في شعر أبي العلاء المعري "روية نقدية عصرية

للترات" دار المعارف ١٩٨١ ١٨٣

فما ألفيت إلا حرف جحد
ففي أي البلاد يكون لحدى^(١)

سألت عن الحقائق كل يوم
سوى أنني أزول بغير شك

لذلك كله انتهت رحلة أبي العلاء- التأملية- في البحث عن حقائق الكون
والمصير الإنساني إلي نفي المعرفة الإنسانية والاعتراف بأن الحقيقة عسيرة:

سألتموني فأعيتني اجابتكم
من أدعي أنه دار فقد كذبا^(٢)

وهذه اللا أدرية تجعلنا نزعم أن أبا العلاء يختلف تماما مع المعتزلة
في جوهر الفكر هذا بالنسبة لمن يدي تشبهه بهم- فالمعتزلة يمتلكون ثقة كاملة
في قدرة العقل العالية^(٣) وإمكانية إخضاع الحياة كلها لتلك القدرة، بينما انتهى
أبو العلاء إلي أن محنة الإنسان الأساسية هي فكره الذي يورده موارد العجز لا
الاقتدار:

وتفكر الإنسان يثني غربه
ويردّ جامحه إلي الاقصر^(٤)

ولا نعتقد أن محنة أبي العلاء أنه " لم يخضع في فهمه للحياة لأصل
ثابت من أصول المعرفة"^(٥) بل نعتقد أن محنته الحقيقية هي الاستسلام إلي
عجز العقل ومحدوديته، والإحساس العظيم بتقاهة حجم الإنسان، ونقل معاناته،
مما يوسع المسافة بينه وبين الحقائق...

لذلك كان شعر أبي العلاء- وأدبه - في معظمه تنويعات علي هذه
القضية، لأن " العمل الفني يولد من رفض الذكاء أن يعطى الملموس تعليلا
عقليا"^(٦) وقد أدرك أبو العلاء جنابة المعرفة علي الإنسان، أدرك انظلامها عليه
وإذلالها له، فبثها ظمأه مرارا:

(١) ل/١ ص ٢٧٨ .

(٢) ل/١ ص ٩٤

(٣) قضايا للعصر/ ص ٣٢٧، ٣٢٨ .

(٤) ل/١ ص ٤١٦ : أثبت محقق الحيوان لفظ " غربة " بهذه الهيئة، ونعتقد أنها غربة أي
دلوه ليستقيم معنى الشطر أكثر ويتناسب مع للبيئة اللغوية له.

(٥) المعرى ذلك للمجهول/ ص ١١٧، ١١٨ .

(٦) أسطورة سيزيف/ ص ١١٢

أرسلت غربك تبغي الماء مجتهدا وما علي الغرب لمتا خاتك المرس^(١)
وليس الماء سوى الأمان والاطمئنان المتحققين بالمعرفة واليقين...
فظمأ أبي العلاء ظمأ شديد إلي حياة لم يعيشها، وإلي حياة لا يفهمها.. ظمأ
وطراد متواصل لحقيقة لا تصاد^(٢).

ونعرض في هذا السياق رأي د. عز الدين إسماعيل الذي يري أن
الشعر العربي لم يعرف الحزن الفلسفي إلا في قصائده الحديثة والمعاصرة^(٣)...
وأنه لم يدرك الحزن "كظاهرة تتركز على مواقف ذات فلسفات محددة إلا منذ
تجارب الشعر الجديد"^(٤).

ولأننا لا نستطيع بحال أن نتعمق في هذا المجال في دراسة الحزن عند
شعراء العصر العباسي نكتفي بالقول بأننا نطمئن إلي أن أبا العلاء المعري كان
أبرز شعراء العصر العباسي في احتواء شعره علي مثل هذا اللون من الحزن..
حزن خلقته نظرة خاصة إلي الوجود، ولم تخلقه فلسفة بعينها في عصره... فإذا
كانت النظرة المتجانسة إلي الأشياء، والموقف الأصيل من الموجودات
والشعور الواحد بالقضايا- إذا كان هذا كله يشكل فكرا كاملا أو مذهبيا واتجاهيا،
فأننا نعتقد أن حزن أبي العلاء كان حزنا فكريا قائما علي إدراك حاد لمسألة
الإنسان، وفجيرة مصيره في مواجهة المجهول والفناء.. كان حزنا وهما يصفه
المعري بأنه فوق طاقة القصيد:

فاقتنع بالروى والوزن مني فهمومي تقيلة الأوزان
من صروف، ملكن نطقي وفكري فهن قيد الفؤاد قيد اللسان^(٥)

وهو لا يفتأ يتأوه من تلك الأسرار الواقع تحت وطأتها^(٦) رانيا أنه " لو
كان السجل الوحيد ذو المغزى للفكر للبشرى سيكتب، فإنه يجب أن يكون تاريخ

(١) ل٢/ص ٢١ الغرب: للتلو المرس: الحمل.
(٢) قضايا العصر في أدب أبي العلاء للمعري/ص ١١٣، ٣١٤، ٣٢٠.
(٣) د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر/ص ٣٥٢.
(٤) د. السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية ط٢/
١٩٨٣م دار المعارف/ص ٢٩٧، ٢٩٨.
(٥) شروح سقط للزندق ١/٤٦٠، ٤٦١.
(٦) ل٢/ص ٢٨١.

تاريخ أسفه المتعاقب، ولا قدرته".^(١)، معترفا بأنه " ليست هنالك سعادة إذا لم يكن في وسعي أن أعرف".^(٢) فالحزن العلاتي هنا وليد المعرفة المستحيلة بكل الحقائق وأولها حقيقة الذات:

إذا عمل الفكر الفتي جعل الغني من المال فقرا والسرور به حزنا^(٣)

وهنا يمزج أبو العلاء بين حزنه الفلسفي وحزنه الخاص، وجيعته الخاصة، بين عماء المادى وعماء الفكرى، عماء الفردي، وعمى الإنسانية جمعاء... فتكون العين رمزا لافتقاد الإنسان مفاتيح فهم وجوده... يكون العماء رمزا للسير في مهامه الفكر، بعد أن عجز عن السير فوق دروب الأرض المادية.. وكان أبا للعلاء لم يجد إلا العين وإظلام العين رمزا لوصف هذا الموقف: وكان العماء هو المعرفة الوحيدة التي امتلكها واستطاع للتعبير بها عن قضاياها.

كيف تهديك للخفيات عين لا ترى الأمل في مهامه ملس^(٤)

وكلا نوعي العماء كان سجنا لأبي العلاء، وقد " ألف للرجل هذين السجنين أشد الألف، وضاق بهما أشد الضيق، ولا تعجب لهذا التناقض، فهو قوام حياة أبي العلاء".^(٥) وقد أكل منه سجناه، حتى انتهى- كما سنرى- إلى " رفض صريح لمطلق الوجود".^(٦)

تضحية الشر في شعر أبي العلاء المعري:

أن وجود خلل ما في حياة الإنسان يعطل القوى الطبيعية للفكر والإحساس فيه، أو علي أقل فرض يؤثر في كفاءة استقبال هذه القوى للأمور، وطاقتها علي استيعابها. وقد اتفق علماء النفس والفلسفة علي أن الشر إذا كان اتجاها سلوكيا في حياة إنسان ما، فهو أثر للفشل الحياتي في تحقيق الذات، وإعاقة النمو^(٧)، لأن الخير حليف البناء والإنتاج والعمل علي رقي الحياة، في

(١) لسطورة سيزيف/ص ٢٧.

(٢) السابق/ص ٢٩، ٣٠.

(٣) ل/٢ ص ٣٥٠.

(٤) ل/٢ ص ٥٢.

(٥) مع أبي العلاء في سجنه/ص ٧٧.

(٦) د صالح الليثي الفكر والقي/ص ١٦٣.

(٧) د زكريا إبراهيم. مشكلة الخلقية مكتبة مصر ط١/١٩٦٩/ص ٢٣٣، ٢٣٤.

حين أن الشر حليف الهدم والتحطيم والعمل علي اعاقه الحياة" ودراما الحياة الخلقية لايد من أن ترتبط ارتباطا وثيقا بهذا الصراع المستمر الجاري علي قدم وساق بين قوى الخير البناءة، وقوى الشر الهدامة"^(١)

الشر في حياة أبي العلاء المعري كان نتيجة تفسيره للحياة، لأن فقد البصر كان أول شر- في اعتقاده - يصطدم به ويعجز عن تفسيره والتكيف معه، كان ذلك الخلل الذي سيطر علي قواه، وصبغها بصبغته، لذلك حينما نظر إلي المجتمع، ووجده علي ما هو عليه من فوضي زاد اعتقاده بأن الشر أصل في خلق البشرية، بل الكون كله:

أتغضب أن تدعي لنيما مذمما وحسبك لوزما أن والدك الدهر^(٢)

هذا الشر في اعتقاده توصف به عموم الكائنات" وكل قوى سلط علي ما هو أضعف منه، فالعالم سلسلة مظالم، ومجموعة مهازل"^(٣) حتى عالم الحيوان تتحكم القوة والأطماع^(٤) فيه.

الدهر في عين أبي العلاء شر كله، وجنابات الحياة فساد والم واخل:

مهلا، أمن وبأ، فررت، وذل تري في الدهر إلا منزلا موبوء^(٥)

لذلك كله لا ينتفي الشر عن الإنسان^(٦)، بل أنه أن امزج بالخير يتغلب عليه^(٧). ويتساءل أبو العلاء: إذا كان الشر مبررا حين يأتي من قبل الكائنات المخلوقة، فما منطقته حين تتسبب فيه قوة أعظم، ما منطقته حين تصيب هذه القوة حياة الإنسان ومظاهر الكون العامرة بخلل ماء، أو دمار، وتقصان؟ لماذا تعاني الحياة من الشر في الأصل؟ لماذا لا يرفع الله للخلل عنها؟... أنمت هذه التساؤلات قوى أبي العلاء ، لأنه لم يبحثها انطلاقا من الفكر الخالص، بل انطلاقا من محنته" لم يبحثها بحثا فلسفيا عقليا" ونضيف انه لم يصبغها

(١) السابق/ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) ل١/ص ٣٠١

(٣) أحمد أمين/نظرة أبي العلاء إلي العالم مجلة الهلال مج ٤٦ يونيو ١٩٣٨م/ص ٨٦٢، ٨٦٣.

(٤) لبو العلاء المعري رسالة الهناء ط/ص ٦٤، ٦٥

(٥) ل١/ص ٥٢.

(٦) ل١/ص ٧٧ وذات المعنى ل١/ص ٢٦٥

(٧) ل٢/ص ٢٤١.

أبو العلاء لم يكن يريد التنظير لفلسفة ما، أو السبق في مجال فكري بعينه، بل كان يريد الاطمئنان والثبات والثقة النفسية، وكان لفتقاده كل هؤلاء داعيه لأن تكون هذه القضايا في شعره ذات صبغة انفعالية قائمة على التوتر والألم والاضطراب.

ونورد نصا لأبي العلاء المعري يتساءل فيه عن حكمة الشر في الوجود، ولكنه هذا الشر.. هذا النص لا نخرج منه إلا بأن أبا العلاء كان مطمئنا إلى رسوخ الشر في الحياة، وإلى أنه قوة غامضة.. وهو بهذا الاعتقاد يهدد نفسه، ويؤكد لها أن عجزها المادي المتمثل في فقد البصر وتناججه لم يكن عجزا لتقصان فيها هي، بل لقوى مجهولة لا يمكن صراعها، وأن أمكن الصراع، لا تمكن الغلبة يقول:

" إن قاتلا من البشر لو قال: إذا بنينا للقضية المركبة من المسند، والمسند إليه، ولهما واسطتان، إحداهما نافية، والأخرى استثنائية، قلنا: الله لا يفعل إلا خيرا، أمهذه القضية كاذبة أم صادقة؟ فإن قيل أنها صادقة رأينا الشرور غوالب، وللخيرات الملتزمة قوالب، فعلمنا أن ذلك سر خفي، لا يشعر به إلا حفي، وفي الكتاب للكريم" وأن تصيهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وأن تصيهم سيئة يقولوا هذه من عندك، كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا". النساء ٧٨، فإن قال القائل: قد روي أن النبي كان إذا لراد السفر قال: اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال، أمهذه الأشياء التي تعوذ منها خيرت لم شرور، لا يكمل بها للسفر ؟

فإن قال: هي مخوفة منكورة، فقد أبطل القضية التي هي متقدمة، لأنها لما سلف طرود معدمة.. وأن قال: القضية المذكورة لا تصح، فإسائل بسبب الألب يلح.. فإن قال: القضية منعكسة، وهي بعد بحث منكسة... فقد لزمه أن يقول: أن الله سبحانه يفعل الخير والشر، فإن أبي ذلك رجع إلي ما يقول المجوس من أن للعالم خالقين أحدهما مزدان وهو فاعل الخير، والآخر أهرمن وهو فاعل الشر، ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة، بل نكرم شرعنا، ونبسط في

(١) شعر أبي العلاء في الدررملت للحديثة/ ص ١١٤

تباعه ذرعنا" (١)

أن محصلة ما قال أبو العلاء في النص السابق - أنه في حيرة شديدة وتلك الحيرة لا تحول دون اطمئنانه إلي مسؤولية الله سبحانه وتعالى عن الشر والخير معاً، بليل تلك أنه حين استشهد بأية من القرآن الكريم، لم يستشهد إلا بأية يوافق ظاهرها اعتقاده بالجبر بينما يزخر القرآن الكريم بأيات أخرى يوافق ظاهرها - وتأويلها - خلاف هذا الاعتقاد. وأنه قد انطلق إلي الاهتمام بالقضايا الميتافيزيقية من هذه القضية.

وقد توقف أبو العلاء عند حكمة خلق الله لأقوام مثل عاد وثمود، "وهو تعالى عليم بما سيفعلون" فكان ينبغي ألا يخلقهم، لأن خلقهم أدام إلي العذاب والتجرع من الصاب، وأن كان لا يعلم بما يصيرون إليه، فهو كغيره من الفاعلين، وقد يربي الرجل ولدا فيكون عاقا، أو يملك عبدا فيخرج معاندا مشاقا، ومعاذ الله أن نقول ذلك، بل نسلم، ونتلو الآية "من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا" (٢) وتسليم أبي العلاء في هذا السياق كتسليمه في كل أموره: استسلام لا اطمئنان... استسلام عجز وقهر مكظوم ارتطم بالمحاذير الدينية فحاول التلطف في لغته وحاول أن يجد صوابه.

أن هم أبي العلاء الأعظم في قضية الشر أن ينزع تبعته من الإنسان، وأن يثبت أن الله تعالى مادام محيطا بعلمه وقدرته فهو مسئول مسؤولية كاملة عن الخير وللشر في الوجود، حتى لو تعارض هذا الإثبات مع بعض الصفات الإلهية التي وصف بها الله نفسه: "قد ذكرت الأنبياء - عليهم السلام - أن الباري - حلت قدرته - رؤوف رحيم.. وشاهد ما علي غير ذلك ليل، لأنه لو رلف ببني آدم لوجب أن يرلف بغيرهم من أصناف الحيوان الذي يجد الألم بأدنى شئ، ولم يخص الأنس بذلك، وهم الذين بجنون الكبانر، ويقدمون علي إتيان الذنوب" (٣).

فأبو العلاء انطلق إلي قضية الشر - وغيرها من القضايا الميتافيزيقية - من وجعه الشخصي، ومعاناته للشر - فقد البصر أولا - الذي أعاقه عن الحياة، وهذا الحديث عن الشر - في شعره ونثره - لا يتعارض مع صدق حسه الديني - الذي فصلنا بعض نقاطه في الفصل السابق - وكان إيمانه " إذا إيمان" بالشقاء

(١) رسائل أبي العلاء المعري/ ج١/ تحقيق إحسان عبد / ص ١٠٥ - ١٠٦

(٢) رسائل أبي العلاء/ ص ١١٣

(٣) السابق/ ص ١١٠.

والنعمي، شقاؤه هو ونعمي الغير، وذلك لا ريب ايمان سلسي خليق بأن يحطم النفس، لا ان يقودها إلى البن، ومتي ولد الأكم الإيمان، والألم سخط وحيرة وتبلبل، وضجر"^(١).

ان أزمة ابي العلاء في كل قضاياها هي أنه افتقد الحياة الصحيحة، التي ظن أنها يوتوبيا، أو حلما متكاملًا، وقد افتقد اليوتوبيا^(٢) في الحياة كلها فأزمته لم تكن اقتقادا للإيمان، أو عدم إشباع للعاطفة الدينية^(٣) بل كانت أزمة عاجز شاعر محتدم الأطرائف، يقوده عجزه- لا عقله أو تأمله الصافي المحض- لذا لا نعجب إذا كان محور شعره ما يراه في الكون من نواقص وتشوهات، "فإن وجد الرذيلة أو القبح أو الشر أوفر حظًا في التمكين من الإبداع فلا جناح عليه مطلقًا في أن يتخذها بل ان يتخذها وحدها موضوعات لخلق الشعرى، بل الأثم كل الأثم في الاتصاف عن هذه الأشياء إلى اضدادها استرضاء وتملقًا لاهواء الأخلاق، أو ما إليهما من الأوضاع في دنيا الحياة، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقرر وفقًا للمذهب الوجودي أن هذه المعاني هي الأخرى بأن تكون موضوعات للشعر الوجودي لأنها هي التي تعبر عن سقوط الآنية، هذا السقوط الذي يولد القلق قلق الوجودي علي نفسه وهو القلق الذي قلنا عنه أنه المحرك الأكبر للشعر الوجودي"^(٤) فهذه الشرور في عين الوجودي المغترب" أدل علي حقيقة الوجود"^(٥) ونحن يتشابه أبو العلاء مع الوجودية في هذه النظرة.

وقد انعدمت ثقة ابي العلاء في أصول الأشياء كلها^(٦) وفي منبت الحياة ذاته، فتصاعدت سخريته لاذعة أسفة لوجود الخير، دهشة منه وضعف تصديق:

-
- (١) د. محمد مطرور في الميزان الجديد . ص ١٤٦ .
(٢) د. صلاح مصيلحي. عقيدة ابي العلاء . ص ١٧٨٣
(٣) محمد زكي العثماني الأدب وقيم الحياة للمعاصرة دار النهضة العربية/بيروت ١٩٨٠م/ص ٥٩
(٤) د. عبد الرحمن بدوي الإنسانية والوجودية في الفكر العربي/ مكتبة النهضة للمصرية ١٩٤٧م ص ٣٨، ٣٩ بتصرف يسير
(٥) د عبد الرحمن بدوي الإنسانية والوجودية في الفكر العربي/ مكتبة النهضة للمصرية ١٩٤٧م ص ٣٨، ٣٩ بتصرف يسير
(٦) ل/١ ص ٥٨

وقد أسفت لخير... إذ علمت به وما أسفت عليه كيف لم يدم^(١)

حين يلتقط أبو العلاء انفاسه- وهذا نادر- من ألمه الشخصي، ويرتكن إلي ما قرأ ودرس وشاهد في الحياة من اتساق وحكمة في خلق الله، تعتدل أمامه الأمور، وينساب أمامه نهر وادع من المنطق والامتلاء في هدوء وامتنان... وحين يستبد به ألمه- وهذا هو الغالب- يصبغ الأمور بصبغة هذا الألم، فيراها عارية من المنطق ملأى بالفوضى، فيصخب إلي حد المجادلة في العنل الإلهي والرحمة الإلهية، بل والحكمة الإلهية أيضا.. وهذا هو منخله إلي الإيمان بالجبر وهو القضية الميتافيزيقية الثالثة في شعره، وهذا أيضا منخل مجتمعه إلي اتهامه بالزندقة أو رقة الدين، أو هو عامل من عوامل هذا الاتهام.

وقيل أن نقف عند ملامح هذه القضية في شعر أبي العلاء.. نمر سريعا بأهم هذه الملامح في بيئة الفكر العربي التي عايشها أبو العلاء المعري، أو التي وصلت ثمارها إليه.

والحرية هي ضد الجبر بحسب معناها الاشتقاقي هي عبارة عن انعدام القسر الخارجي، والإنسان الحر بهذا المعنى، هو من لم يكن عبدا أو أسيرا، ومن هنا فقد اصطلح التقليد الفلسفي علي تعريف الحرية بأنها اختيار الفعل عن روية، مع استطاعة عدم لختياره، أو استطاعة اختيار ضده^(٢).

ولدهشتنا نجد أن غالبية الفلسفات لا تؤمن بوجود الحرية بهذا المعنى إطلاقا، لأن تحقيقه بهذه الصورة المثالية لا يتأتى للإنسان: "حررتي ليست قوة معجزة لا تخضع لأي قانون، بل هي قدرة محدودة، تؤثر فيها قوى منيعة: بعضها مصدره ذاتي نفسها، وبعضها مصدره وجودي الخاص الذي يحد من دائرة نشاطها، وبعضها مبعثه العالم الخارجي الذي تعيش فيه، وبعضها مرجعه إلي الضرورات التي تزين عليها، والقيم التي تجتنبها، أو تدفعها إلي العمل"^(٣).

هذه الحواجز التي تقف بين الأنا، والحرية المطلقة تشكل عدة مذاهب أو نظرياته فلسفية في هذه القضية، فهناك الحتمية أو "التعيين determinism من اللاتينية Determinor.. نقول بالترابط القانوني الشامل بين الظواهر، أي

(١) ل٢/٣١١

(٢) د. زكريا إبراهيم. مشكلة الحرية. مكتبة مصر ص ١٢

(٣) للسابق / ص ١٩٧، ١٩٨

تري ان كل ظاهره إنما ترتبط بم حدث في المصفي من طواهر، وتكون مشروطة بها، ولكن الفلاسفة المتبنين للحتمية يختلفون فيما بينهم حول طبيعة العمليات الكامنة وراء ارتباط الظواهر فالقائلون مهم العناية الإلهية يرون أن الارتباط القانوني بين كافة الظواهر في الرمان مرسوم من قبل الإله أو القدر أما للماديون فيذهبون إلي أن ارتباط الظواهر يعود إلي عمليات مادية" (١)

وفي الحالتين يسير الكون وفق خطة نقيقة أما الحتمية اللاهوتية فهي " كثيرا ما تستحيل إلي جبرية تقول بالفضاء والقدر Fatalisme إذ أن مجرد وجود الله يستتبعه بالضرورة أن يكون مصير الإنسان محددًا تحديدا سابقًا، بغض النظر عما سوف تتجه إليه إرادة الإنسان" وهذا ما تعبر عنه الجهمية بقولها:

" أن الإنسان ليس يقدر علي كل شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا اختيار، وإنما يخلق الله الأفعال فيه علي حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازًا كما تنسب إليه الجمادات، كما يقال أثمرت الشجرة، وجرى الماء، إلي غير ذلك" (٢)

وبعد تلك الضرورات التي تحد من حرية الذات- بعضها- مصدره الذات نفسها، فهناك أن حتمية سيكولوجية Determinisme Psycholoque. " مؤداها أن كل نشاطنا الإرادي متوقف علي حالاتنا النفسية كالتصورات والأفكار" (٣)

وشبيه بهذا المذهب- أو ناتج عنه- القول بالجبر.. وقد ارتكن معظم القائلين به إلي أن " الفعل قد جعل لقياس كل ما هو " ضروري" ولهذا فقد اصطدم معارضو الحرية بهذه القضية المنطقية الهامة.. إلا وهي: أن الفعل الحر غير معقول، ومن ثم فهو غير ممكن، وأن فإنه غير موجود". بما ينفي إلي القول بأن " فكرة الإمكان نفسها هي من صنع الجهالة الإنسانية، لأن الضرورة هي التي تتحكم في مصير العالم". (٤)

والقائلون بالجبرية من المسلمين لا يكابون يختلفون عن القائلين

(١) المعجم للفلسفي المختصر / ص ١٨٠

(٢) د زكريا إبراهيم. مشكلة الحرية ص ١٢٥، ١٢٦

(٣) للسابق / ص ٩٧

(٤) مشكلة الحرية/ ص ١٦٨

بالحتمية إلا في مصدر القوى الخارجي الذي ينسابون إليه الفعل فقط فالجبرية تنفي قيمة نشاط الناس الحر كأداة لتحقيق الضرورة الموضوعية، وعلي الأغلب كانت الجبرية في التاريخ تعكس أمزجة الطبقات والفئات الاجتماعية التي لا ترعي آفاق التقدم، وتولد- علي الأغلب- أمزجة الخمول والسلبية. (١)

وهذا ما فعله أبو العلاء حين ارتكن إلي القول بالجبر وما يشبهه، فاستسلم إلي عزلة قاتلة مكلفة بالإيمان بلا مسؤولية الإنسان عن فعله أو عن قدره عامة.

وقد ناهضت المعتزلة مذهب الجبرية في الإسلام.. لأنها قدست فعل الإنسان الحر، فهم " لا يتصورون أن يكون الإنسان مطبوعا علي أفعاله بحيث لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كأنما هو مادة جامدة ذات ماهية ثابتة". (٢)

وقامت في ساحة الفكر الإسلامي معارك فكرية بين المعتزلة وخصومها، وفند كل حججه (٣) بما أثري البيئة الثقافية - والبيئة الدينية بالطبع- .. وفتح المجال واسعا لإعمال العقل.

كذلك ظهرت محاولات للتوفيق بين الطريقتين، وكان هدف هذه المحاولات الحفاظ علي جوهر القضية: إثبات العدل الإلهي، ومن ثم استحقاق الإنسان للثواب والعقاب، الجوهر الثاني: إثبات القدرة الإلهية بما ينفي عن الإنسان المسؤولية المطلقة عن فعله فظهرت الأشعرية، وخرج ابن رشد أيضا ليقول " أن الله قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكنسب أشياء هي عبارة عن أضرار، ولكن اكتساب، تلك الأشياء لا يتحقق لنا إلا بمواتاة أسباب سخرها الله لنا من خارج، فالأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين معا." وهو قول لا بد أن ينتهي إلي رأي الجبرية (٤) حيث رهن ابن رشد الإرادة بأسباب خارجية تتحكم في تسييرها قوى غير الذات.

وفي هذا المضمار لا ننسى الصوفية الإسلامية التي تميزت برويتها الخاصة للحرية، حيث اعتقدت أنه لا حرية للذات إلا في توحيدها مع الذات

(١) المعجم الفلسفي المختصر/ ص ١٧١ بتصرف.

(٢) مشكلة الحرية/ ص ١٢٧٧، ١٢٨ بتصرف.

(٣) السابق ١٢٧، ١٢٨.

(٤) مشكلة الحرية / ص ١٢٨، ١٢٩.

العليا، وانصهارها فيها، وهو طريق ممتع للوصول إلى الحقيقة^(١) عند رجال الصوفية.

تلك هي البيئة الفكرية التي طالعها أبو العلاء المعري، سواء ما كان منها معاصرا له، أو سابقا عليه، بما سهل علي كثير من الآراء التي^(٢) تناولته أن ترجع قوله في الجبر إلى ناحية فكرية بعينها من نواحي هذه البيئة.

وكلل قضايا أبي العلاء المعري- وقضايا كل إنسان- ينبع الموقف من الذات أولا قبل أن يتأثر بالمناح المحيط به، فتأثير هذه الفلسفات والمذاهب أو غيرها ضعيف بمفرده إذا لم يلمس بيئة خصبة مواتية فهو يتحول حين يجد مثل هذه البيئة، يتحول من فكر مجرد إلى موقف شامل من الحياة.

وقد كان من الطبيعي لأبي العلاء أن يتساءل عن دوره أو مسنوليته في فقد البصر- كأن ذلك من الطبيعي- لأن تلك العاهة أو تلك المحنة شكلته" ف نحن هنا بأزاء ذات مهمومة بوجودها، ولذا فهي تضع نفسها موضع السؤال، متسائلة عن إمكانية حريتها"^(٣) خاصة وأن المغترب المهموم بالقضايا الميتافيزيقية يهيمه من الدرجة الأولى أن يتسق مع الكون في وحدة مفهومة وعلاقة واضحة بلا التواء، فالحرية" لها صلتها الواضحة بمشاكل ما يعد الطبيعة"^(٤).

ولأن اللزوميات- زمنيا وفنيا- تعتبر بحق مرحلة مواجهة الذات، واستخراج أسرارها، فأنا نرى فيها ميلا حادا إلى الجبرية، لا يشوبه الاعتدال: أنا في إيسار الدهر لست بمطلق أبدا، فأسر لعا الطلاقة أو سر^(٥).

ولأن فقد البصر هو دافع أبي العلاء إلى القول بالجبر في رأينا، فإن

-
- (١) قضايا العصر في أدب أبي العلاء/ ص ١٠٥.
(٢) ذهب إلى هذه الآراء د. طه حسين في الهلال عدد ١٩٢٨م/ ص ٩٧ وكذلك في كتابه مع أبي العلاء ص ٧٢، ٧٣، وكذلك صاحب الفكر والفن ص ١١٧، وصاحب "علي هامش الغفران ص ١٠٤، ١٠٥، وصاحب عقيدة أبي العلاء ص ٨٩، وصاحب قضايا العصر ص ٢٠، ٢٣، وغيرها وصاحب أبو العلاء ولزومياته ٥٩٦، ٥٩٧، وصاحب المعري ذلك للمجهول/ ص ١٧٧، ١٧٨.
(٣) مشكلة الحرية/ ص ٢٣.
(٤) السلوق / ص ٥
(٥) ل ١ / ص ٤٠٨.

هذا القول بالجبر مرتبط أشد الارتباط بمشكلة الشر في العالم " يؤمن بوجود الله القوي القوي، المسئول عن الشر، وفي ذات الوقت هو لا يري أية إمكانية لحرية الإنسان..! لذلك يكثر في شعره لفظ القدر والدهر والزمان، فسيطرة هذه المعاني علي شعره تمثل تمكنها من نفسه:

قضاء يوافي من جميع جهاته كما هو في أيماننا والأياسر^(١)

الإنسان في شعر أبي العلاء يتعقبه قدر لا يني عن المطاردة: ^(٢)

إن سار، أوحلّ الفتي لما يزل يلحظه المقدار بالمرتبة^(٣)

ويتخبط أبو العلاء في تسمية القوة التي تسيطر علي الإنسان، أو تجبره، فتارة نجد هذه القوة في شعره قوة إلهية، وتارة قوة مادية هي قوة الصدفة، أو قوة العلاقات الديناميكية بين أجزاء الطبيعة، وكان أبا العلاء يدين بفلسفة الضرورة وللحتمية المادية، والحتمية اللاهوتية. وكل ما يشبه ذلك، علي الرغم من أنه لا يدين إلا بفلسفته الخاصة: فلسفة الألم وحتمية العجز لا حتمية الفكر المجرد المنظم ، إن تأملات المعري وأراءه لا تتطلق إلا من تجربته الخاصة فقط ، يقول:

لم يستكم ريكم عن حسن فعلكم ولا حمامكم غماما سوء أفعال
وإنما هي أقدار مرتبة ما علقت باساءات وإجمال^(٤)

وأيا كان نوع القوة المهيمنة علي الإنسان فهو عشوائي- في شعر أبي العلاء- فهي لا تخضع للمنطق، بل للانفعال المحض، ومع ذلك نصيبنا سهامها، وتخترق كل وسائل دفاعنا^(٥) لأن الإنسان كيان هش:

تمشي علينا الحادثات، ووطؤها كسنا للبورق ليس فيه عثار^(٦)

ولأن الدهر يخيفنا، فنحن نضطرب في دفاعنا عن أنفسنا، أمامه وهذا

(١) ل ١ / ص ٤٠٨ .

(٢) ل ١ / ص ٤٠٨ .

(٣) ل ١ / ص ٥٨ .

(٤) ل ٢ / ص ٢٣٢ .

(٥) ل ٢ / ص ٦٦ .

(٦) ل ١ / ص ٣٢٩ .

هو مقتل الإنسان. (١)

لذلك يسخر أبو العلاء من الإنسان الذي يعب الحياة دور أن يقف لحظة واحدة أمام هشاشته وتكوينه الشبيه بالنمي التي تلعب بها المقادر

ويمرح الإنسان من جهله وهو أسير في رباط وئد^(٢)

الإيمان بالجبر اغتراب عن الوجود لأنه علاقة متوترة بهذا الوجود، علاقة قائمة علي الريب والخوف^(٣)، ومع ذلك كان الاغتراب لأبي العلاء، وكان- أي الجبر- يمثل لونا من علاج أبي العلاء لذاته تلك الذات التي لا تقف تعيره بنقصه وعجزه وبأنه غير مستطيع بنفسه- كما وصف هو حاله في إحدى رسائله.

فالارتكان إلي الجبر خلاص من مسئولية الفعل الإرادي، أو مسئولية التغيير الإرادي للمصير، بما يحمل عن الذات عبء فشلها وإحباطها " فالأصل في إيماننا بالجبرية إنما هو شعورنا السيكولوجي، أعني شعورنا بأن الأفعال التي نحققها متوقفة علينا، وأن سلوكنا بأكمله قد أودع بين أيدينا"^(٤) فالحرية فزع ومسئولية عظيمة تهاب منها الذات، لذلك " حينما تضعف في أنفسنا معاني الوجود، فأنا سرعان ما نهيب بالوراثة والبيئة والمجتمع، والقدر والقضاء الإلهي لتفسير أفعالنا، وتبرير مظاهر ضعفنا"^(٥) فحديث أبي العلاء عن الجبر محاولة لإقناع ذاته به، قبل محاولة إقناع الآخرين، لذلك فهو يطرح القضية بأسلوب يروق للوجدان لا للعقل، فدليله في هذه القضية هو أن الإنسان لم يختر الحياة أو الموت، ومن ثم فهو فيما بينهم غير مسئول ومثل هذا الرأي يروق المتبعين :

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تخيير^(٦)

هذه المقولة هي بداية حديثه عن الجبر وهي نهاية هذا الحديث أيضا،

(١) ل ١/ص ٢٨٩

(٢) ل ١/ص ٨٧

(٣) د ركزيا إبراهيم مشكنة الحرية ص ٣٣

(٤) السابق المقدمة ص ١٠٠٩ بصرف

(٥) ل ١/ص ٣١٥

(٦) ل ٢/ص ١٧٠

لأن الجبر في تصور أبي العلاء المعري منتصر حتى في تفاصيل الحياة البسيطة:

وردت إلي دار المصائب مجبرا
أعاني شرورا لا أقوام لمثلها
وأصحت فيها ليس يعجبني النقل
وأناس طبع لا يهذب العقل
ونبت أناس مثل ما ينبت البقل
سحائب للسقيا وسحب من الردى

فالجبر لا يفسر لأبي العلاء تناقض الحياة الذي تستقبله حواسه الحية، فالإنسان يعطي الحياة، ويعطي الموت... والجبر لا يفسر أيا منهما.. إلا إذا كان الجبر يعني- عند أبي العلاء بالطبع- إلغاء كرامة الوجود البشري، بما يجعله العوبة تافهة، وهذا ما يظني أبا العلاء:

وما كنت في أيام عيشك منصفاً
ولكن معني في حبالك تجنب^(١)

وكان هذا الإحساس من دواعي اشتهاه أبي العلاء للموت- كما سنرى بعد ذلك.

وفي رثائه لأمه بيت أبو العلاء إحساسه الحاد بالجبرية الذي جعل من حياته موتاً متواصلاً، وكان هذا الإحساس موافقاً تماماً لحادثة موت الأم، حيث كان قدما قضاءً عليه بالموت دون اختيار منه فكأنه رأى موته وعاناه حياً، يقول:

وصرقتني فخيرني زمان
سيعقبني بحنف وادغام^(٢)

يقول التبريزي: " أي صرفه من حال إلي حال غيره، بالعمي والشيخوخة، وغيرهما... سيعقبه بحنف وادغام... أي يزيه ويخفيه في القبر، وإنما الغز عنه بالتصريف."^(٣)

فالتصريف هو السلوك اللائق بالقوة العليا تجاه الوجود الإنساني، الخاضع لإرادة غير إرادة ذاته. التصريف أيضاً هو ذلك الحلم الذي لرق أبا العلاء وتمني لو ملكه وأمسك به.

ويظهر في قول التبريزي ما يؤيد زعمنا بأن انطلاق أبي العلاء إلي

(١) ل/١ ص ٧١

(٢) ق/٤/١٤٣٣

(٣) شروح سقط الزند / ق/٤ ص ١٤٣٣

الجبر كان مبعثة محنة فقد البصر حيث يفسر التصديق بالعماء.

وفي البيت السابق تدرج أبو العلاء بالجبر من العمي إلى الشيخوخة إلى الموت وكأنهم مرادفات لمعني واحد، وكان الجبر لصيق برحلة الإنسان في الحياة.

ويصف أبو العلاء حياته وصفا حادا في عنانها ومرارتها، لكنه خلال ذلك يطرح عن نفسه مسئولية وجود هذه الحياة: "كم أكل ما استوبله، وأسمع ما لو صممت عنه أحمته، كأنما أطرح إلي سموم الجسد سموما، من أجالس؟ وجلساء الصدق قليل، وبمن أثق، ونفسي الغادرة الخؤون الحجر أوثق من ذي الحجر." (١)

كذلك فإن وصف أبي العلاء للقدر وصف انفعالي غريب، فالقدر يطالبه بثأر لا يزال يتعقبه به، وهو ينجح في إBRAKته حتى يتركه عاجزا قاسيا: "طلبني الزمان بوتر، ورماني بالقتر، وما ترك لي مير قتر، غير ملقي جسد تحت الصفاح." (٢)

وتروق لأبي العلاء كل المعاني التي تطرح عن كاهله مسئولية الفعل، فلا يفتأ يردد أن فراره من الدهر لم يفنه (٣) وأن الدهر لا يدعه لمحة من الزمن يغيب عن ناظره (٤) وأنه يخلق أمامه كل الأبواب:

"الله خلقتني لأمر، حاولت سواه، فألفيت المبهم بغير انفراج." (٥)

ومن الطبيعي أن يكثر أبو العلاء من نكر العجز والفشل - وما إليهما - في سياق الحديث عن الجبر، لأن العجز ومرادفاته مدخلة إلي الجبر، ولأن الجبر كما قلنا يدر له وجوده العاجز، لذلك فهو يقف كثيرا عند صورة الطائر السجين الذي لم ينفعه التهجير، ولا الإدلاج (٦) وفي رثاء أمة يرمز المعري بالاسد إلى الإنسان المرغم (المجبور) فيصوره وقد اجترا عليه البعوض بعد أن

(١) أبو العلاء المعري/ الفصول والغايات / ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) السابق / ص ٤٢٣. للقتر: ضرب من السهام

الصفاح. الحجارة العريضة

(٣) الفصول والغايات / ص ٢٨٣.

(٤) السابق / ص ٢٥١.

(٥) رسالة للهنا / ص ٣١، ٣٢ وذلك للمعني في ل ١ / ٣٧٤

(٦) الفصول والغايات / ص ٢٨٥.

كان مفترسا ، معترضا الجماجم تحته في الغاب ، تلك الجماجم التي قد تشير الي قوة افتراس الأسد وقد تعني الإشارة إلي أن مصير هذا الأسد لن يختلف عن مصير من هو أضعف منه .. فالموت هو المصير المشترك هو تلك الجماجم المائلة الشاهدة بنهاية كل حي.. هي أذن صورة تعبر عن العجز والجبر .
الجبر المتمثل في تعطيل القوى الخارجية لإمكانات الإنسان الداخلية:

ولا يسرى حساب الدهر ليث له ورد من الدم كالمدام
يغنيه البعوض بكبل غاب فريش بالجماجم واللمام^(١)

وقد يترك الإنسان حرا في فعله، فيفعل ما يشاء، متخيلا أنه إنما ملك مصيره بيده، فإذا به في كل أفعاله لا يبعد عن طريق الموت.. بل هو يسعى إلي قبره بيديه وقدميه معا... أن العلاقة بين الإنسان والدمر علاقة غير متكافئة القوي "... في شعر أبي العلاء:

غدوت ورييه فرسي رهان يجيد نوانبا واجيد صبرا
وكم ساع ليجير في بناء فلم يرزق بما بينينه جبرا
كأم القز يخرج من حشاها نري بيت لها فيعود، قبر^(٢)

فاعتاق أبي العلاء للعلمية، كان مرصوفا بهذا الإيمان العميق، بالجبر. وأبو العلاء لا يري الجبر قوة مهيمنة عليه وحده، بل أن تأمله المنفعل أودي به إلي أن يري البشرية كلها ينتظمها سلك واحد من المهانة والتصغير والتحقير والتسيير من خلال الجبرية :

نهاب أمور، ثم نركب هولها علي عنق من صاعرين قماء^(٣)

فنحن كما بصورنا المعري لا نملك دفعا لما لا نريد^(٤)، بل أن اتصافنا بالشر والذنس ذاته يعود إلي قوي غيبية عطلت سعي البشرية إلي التطهر^(٥)، ورتبتها في خيط لئلهو بها، بل نحن نبدو مالا ينفق منه الدهر ما يشاء^(٦) مطبقا

(١) شروح سقط الزند/ق/٤/ص ١٤٣٤ .

(٢) ل/١/ص ٣٦٤ .

(٣) ل/١/ص ٥٤ وكذلك ل/١/ص ٤٠٤ .

(٤) ل/١/ص ٢٣٠ .

(٥) ل/١/ص ٣٦٧ .

بشاء^(١) مطبقا علي أنفاسنا كالفلك المقيم، الذي لا نملك إلا استقبال غيئه شرا
كان أم خيرا^(٢).

ولأن الحديث عن الجبر في شعر أبي العلاء مبعثه فقد البصر، لذلك لا
نعجب من أبي العلاء حين ينفي إيجابية الفعل الإنساني ويسخر من جدوى تقديم
أسباب الحياة، وكذا لا نعجب من تأكيده أن الرزق يأتي سواء بالجد أم
بالتكاسل^(٣).

وإذا تساءل سائل عن دور العقل في حياة الإنسان في اعتقاد أبي العلاء
ألتم بالأخير سخريّة فاجعة، فإذا به يصور العقل محدودا لا يرد قدره ولا يحدد
مصيرا.. بل لا يقدر علي شيء:

والعقل زين، ولكن فوقه قدر
فماله في ابتغاء الرزق تأثير^(٤)

أن العقل في هذه الرؤية، لا يضيف إلي الإنسان ميزة أو وعيا وتفاعلا
وحركة^(٥).

والارتكان إلي قوة الله- دون جهد ما- كفيلا" بتسيير الأمور وخلق
المعجزات حتى أن الواقف تحت المطر له إلا بيتل^(٦) لما فعل الإنسان في حد
ذاته دون قوة من السماء فهو فعل خائب غير مجد^(٧)، وهنا يكشف أبو العلاء
وجهه الحقيقي في قضية الجبر، يجاهر بقضيته الأساسية التي وطنت فيه
الإحساس بالجبر.. ويكشف ما كان يلتوى ويدور ليفصح عنه ألا وهو: ميله إلي
تأكيد لا مسؤوليته في الحياة:

فكيف أحمل عبئا، أن جري قدر
علي، أدرك ذا جد، ومن سمد^(٨)

(١) ق/٣ ص ١٠١٢، ١٠١٣.

(٢) ل/٢/١٢٧.

(٣) ل/١ ص ٤٣٩ وذلك للمعنى في الفصول والغايات ص ٢٠٦.

(٤) ل/١ ص ٣١٥.

(٥) ل/٢ ص ١٧٦.

(٦) الفصول والغايات / ص ٢١٩.

(٧) ل/١ ص ٨١.

(٨) ل/١ ص ٢٥٩ سمد أي علا، وأيضا سبدا: لها... لسان العرب مادة سمد ج- ٢٢/ص

٢٠٨٩

ولأهمية هذه القضية من نفسه، يثبت أبو العلاء هذا المعنى في أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب للطرح، وأكثر من مدخل... فهو يدرك أن بهذا الرأي مدان بأنه ينفي قيمة السعي البشري، وأنه من ثم يدعو إلي الناسل والفراغ والفساد، لذا يحتاط بقوله:

وما نهنت عن طلب ولكن هي الأيام لا تعطي قيادا
فلا تلم السوابق والمطايا إذا غرض من الأغراض حادا^(١)

وإذا كان أبو العلاء قد نفي قيمة عقل الإنسان، ودوره في توفير أسباب الحياة، فإنه لم ينفي قيمته في التأميل علي صحة هذه القضية، فهو لا ينفي يستخدم أساليب المنطق والاستدلال والافتناع المختلفة... واقعا بهذا بين تناقضين:

ولم لم يقتر خالق الليث فرسه لمطعمه، لم يعطه الذاب والظفر^(٢)

وبهذا الطرح للقضية، وبهذه المعالجة يمزج أبو العلاء بين رؤيته قضية الجبر وقضية الشر، "فالإنسان مجبر علي الشر" هذا ما يريد أبو العلاء إثباته.. لا لينشر الفساد في المجتمع- فهذا يتناقض مع دعاواه في الإصلاح وتثريه لأهل عصره- بل ليصل إلي تبرئة يد الإنسان، مسئولية عما يلحق به من خاصة الإعاقة والتعطيل..

بيد أن قول المعري أن الإنسان مجبر علي فعل الشر يتبعه القول أن الإنسان أيضا مجبر علي هجر الخير وقد أدى هذا الفكر بالمعري إلى أن يعالج بعض القضايا الإسلامية معالجة انفعالية سريعة من منطلق منطق الخاص.. فمركب الكبيرة في هذا السياق ليس مدانا:

إن كان من فعل الكبائر مجبرا والله إذ خلق المعادن عالم سفك للحماء بها، رجال اعصموا
فعبابه ظلم علي ما يفعل أن الحداد البيض منها يجعل بالخيل تلجم، بالحديد، وتعل^(٣)

(١) ق٢/ص ٥٥٣، ٥٥٤.

(٢) ل١/ص ٣٥٠.

(٣) ل٢/ص ١٨٧.

فالبيت الثاني والثالث يؤكدان أن معنى الأبيات مجملا هو ميل أبي العلاء إلى القول بالجبر، وأنه في هذه الأبيات لم يكن يعرض رأي طائفة، فكرية أو مذهبية، بل كان يصف ما أوصلته إليه التجربة

ولعل إيمان أبي العلاء بالجبر، وثقته بانعدام قيمة السعي البشري، يبرر لنا- أو هو أحد مبررات ارتكائه إلى عزلة قاسية، وفي ذات الوقت تكون هذه العزلة بشكل ما- خاصة في بدايتها- دليلا على إيمان أبي العلاء بالجبر... ونقول خاصة في بدايتها لأنها بداية انفعالية.. لكنها بمرور الوقت أنتجت عملا هو ذلك الشعر الذي بين أيدينا وذلك النثر، بما يعني أن عزلة المعري إيجابية وكذلك اغترابه.

فأبو العلاء لم يتصالح مع محتته، لم يعل عليها، ولم يتحكم في تجربته أو يقيمها.. ظل منفعلا بها، وظلت معتلية ظهره وعقله ووجدانه لذلك لم ينظر أبو العلاء إلى قضاياها نظرة الفلاسفة- كما سنوضح لاحقا- الفلاسفة- الذين يري بعضهم أن الطريق الأوحده للخروج من قيد الضرورة يتمثل في مطابقة الإرادة للضرورة، ويرون أن الحكيم إذا توصل إلى "فهم قانون الأشياء أو الضرورة الكامنة في الطبيعة، وإذا استطاعت إرادته أن تتدمج في تلك الإرادة الكلية التي تحدث كل شيء، فإنه لن يكون مجرد عبد أسير، بل سيكون له دور فعال في مملكة الطبيعة".^(١)

فالعامل النفسي الذي يدفع إلى اعتناق مبدأ آخر غير الجبر "يساعدنا علي أن نحيل الجبرية القاسية إلى عليه غائبة معقولة، فنضع في مقابل القول بالقضاء والقدر ضربا من الإيمان بالجبرية العقلية".^(٢)، والحقيقة أن أبا العلاء لم ينعم بمثل هذه الحياة الروحية الرائعة، لا قبل العزلة ولا خلالها- ولأنه لم يقصد بالعزلة ذلك النوع من الحرية الذي يتسامى فيه الفرد علي ذاته^(٣)، أو تلك الحرية التي يختار ذاته كاملة^(٤) اختيارا سويا عقليا، لأن أبا العلاء صبغ كله بملامح النقمة والسخط، والاحتجاج والانفعال.

وعلي الرغم من ذلك،- علي الرغم من أنه لم يقصد بالعزلة إلا الهرب

(١) قضايا العصر / ص ١٢٨، ١٢٩ بنصرف

(٢) مشكلة الحرية / ص ٢١٦

(٣) السابق / ص ٢٢٤

(٤) مشكلة الحرية / ص ٢١٤

أو التهاون والتهم - كما وصف حاله حين أراد جمع حروف الزيادة في اللغة العربية - في جملة نهاوني أسلم والنهاي سمو - علي الرغم من ذلك - فقد أرغم أبو العلاء في عزلته الطويلة الواسعة علي التساؤل ومواجهة الذات ذاته الحقيقية - بما لأول مرة لذلك كانت عزلته غاية في التعقيد والخصوصية، ولم يمنع الجبر الذي يؤمن به - والذي هو أقوى دوافعه إلي العزلة - من أن ينفذ بصيرته فيما حوله، وأن يتمعن في الذات الإنسانية. (١)

وقد كان من دواعي القبول بأن أبا العلاء لا يميل إلي الجبر، رؤيته للذات الإنسانية بعين الاتهام، ووصفه لها بأوصاف الفساد والشرور.. فقد أكثر من نم الناس وهجاء أخلاقهم (٢) حتى أنه لم يستثني نفسه من اللجم (٣) ... لذلك حاول كثير من الباحثين والدارسين التوفيق بين هذا كله والقول بالجبر (٤).

وأبو العلاء في اعتقادنا ليس متناقضا فهو يميل إلي القول بأن فطرة الإنسان فاسدة، وأنه سيئ بالغريزة أو الطبع، وهذا ما تراه الفلسفة الوجودية حلا ممكنا مقنعا لهذه القضية فالإنسان مكون علي نحو يجعله عرضه لامكان السقوط، أعني لعدم التناسب، أو العجز عن أن يكون علي مستوي يتناسب مع منزلة إمكانه، هناك إذن شيء أشبه بالتصور المأسوي للذنب عند الوجوديين، فالإنسان بطريقة تكوينه ذاتها، من حيث هو وجود متناه؛ وحر أيضا عرضة لامكان الذنب، ويبدو أن ارتطامه لا ينقسم عن سقوطه (٥).

فأبو العلاء في نمه للناس إنما ينعي عليهم الفطرة الفاسدة، فهو بذلك ينم " جوهر " القضية، ولا ينم الشخص المائل أمامه دليل ذلك نمه لنفسه رغم إيمانه ببراعته من كل ما يقترفه مجتمعه من أثام، وإيمانه بتفوقه عليهم في السلوك والقدرة علي ضبط النفس.. فهو بهذا الهجاء الحاد للبشرية إنما يثبت - عن قصد أو عن غير قصد - عدم مسئولية الإنسان عن فعله.

أما ما نراه من غضب وثورة، في حديثه عن الفساد، ورغبته في

(١) ص ٢٥١. الح اليطي. الفكر والفن / ص ٢٥١.

(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي / ص ٣٠، ٣١.

(٣) أبو العلاء المعري رسالة الغفران ج ١ / ص ٤٩، ٥٠.

(٤) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢١١، ٢١٢ رسالة الهناء / ص ٥١ إلي ٥٤ أمراء الشعر

ص ٤١٦.

(٥) جون ماكوري / للوجودية ٢٩٤

الإصلاح، فهو - واقع أو نابع - من تعقيد مشاعر أبي العلاء الذي هي في جانب منها لا تتصالح مع فكرة هشاشة الإنسان وعدم استطاعته ومسئوليته. كما أن هذه المشاعر في جانب آخر منها غير بريئة من الإحساس بوجيعة الشخصية وعجزه فهو ينطلق إلي مجتمع عاجز مشوة ناقص - في أخلاقه واعتقاده وفكره - من شعوره بأنه كائن ناقص عاجز - ماديا أو جسديا - وهو يغضب عالما بلا جدوى الغضب... لكنه تتفيس المكبوت، ورغبة في إثبات الذات وهو ينعى عجزه في صورة هذا المجتمع الفاشل، وينعي علي المجتمع محدودية قدرته في وجوده الشخصي العاجز:

وقد غلب الأحياء في كل وجهة هو احم ، وأن كانوا غطارفة غلبا
كلاب تعاون أو تفاوت لبجيفة واحسبني صدت الأمها كلبا^(١)

وقد نرى في ظاهر شعر أبي العلاء ما يناقض قوله بالجبر ، حيث يثبت القيمة للسعي والفعل ، ويصور الحياة حركة وأسبابا تقدم:

تروم رزقا بأن سموك متكلا وأدين الناس من يسعي ويحترف^(٢)

ولا نحسب هذا القول إيمانا بالإرادة، لأن سلوك أبي العلاء مجتمعا في الحياة يتناقض معه، بل هو من قبيل الاضطراب العاطفي... والوقوع تحت تأثير الإيمان، والمثول لحكمته.. والافتناع بجوهر الإسلام الذي يتناقض مع هذا الجبر.. وهو أيضا قول من باب معالجة للذات التي تبرأ من عجزها حين تتخذ موقف المصلح لنوع آخر من العاجزين.

كذلك قد نرى أبا العلاء يتوسط القول بالجبر ، والقول بقيمة الإرادة في قوله:

لناس مختلفون، قيل المرء لا يجزى علي عمل، وقيل يجازى
والله حق، من تدبره عرف اليقين وأنس الاعجاز^(٣)

إنما هي لحظات من الاستسلام الوداع.. والضعف الشجي الذي لم يجد

(١) ٩١/١

(٢) ١٣/١ ص

(٣) ١٨٨/١ ص

مفرا من التسليم للقوة العليا تعباً وإشفاقاً من الخطأ والاجترار.

صراع أبي العلاء بين ثنائية الروح والجسد:

كان من الطبيعي لأبي العلاء أن يعاني مثل هذا الصراع، فقد أدى به فقد بصره إلي أن ينكث علي ذاته ويتحسسها في عزلة خاصة قبل أن تبدأ عزلته المادية بزمن، ففي العزلة الأولى التي خلقها له فقد البصر كان من المنطقي أن يهتم بحرمانه من الحياة- أو من جوانب بعينها من الحياة بسبب هذه العاهة.. وأن يصطلم بحواسه الشبقة إلي هذه الحياة.. هذه الحواس التي ضخم من تفتحها الحرمان.. فيتبدى الصراع أو تتبدى ثنائية الروح والجسد هذه في هذا الحرمان وهذا الإحساس الحاد بالشيق إلي لذائد الحياة.

ومن ناحية أخرى كان تكوين أبي العلاء الثقافي يتعمق به داخل الكائن البشري ويكشف له ضعف هذا الكائن وتناهيه... وعجزه عن استثمار طاقاته كيما يرتفع فوق رغائب الذات... وكان ذلك كله يمثل جانب الروح... أو النفس الشفافة التي ساعدته علي التزام ما لا يلزم... في الحياة، والفن... وجملت له موقفه الساخط من الحياة، فراه قدرة وعلوا، وكمالاً.

أذن فقد وقع أبو العلاء في ثنائية الروح والجسد، لأن فقد بصره كان يدفعه إليها مباشرة.. مثلما وقف وراءه في كل صراع وقضية.

وقد لامت قضية الروح والجسد رأي أبي العلاء في مشكلة الشر ومشكلة الجبر.. وكونت القضايا الثلاث ثالوثاً متكاملأ أدى بأبي العلاء إلي اليقين بتناهي الإنسان وضعفه وعدم قدرته علي المسئولية، فالجسد أو الطبع أو الغريزة فطرة مخلوقة بشكل يؤكد معني الجبر... وفي ذات الوقت هي مخلوقة بشكل شره فاسد ومن ثم فإن توجيهها إلي الشر لازم لأنه جبر لا اختيار.

وقد رأينا في الفصل السابق ماهية صراعه مع النفس، وكيف أنه يعنفها حين تجذبه إلي الحياة، وتتمرد علي حرمانها من هذه الحياة، وتتحسر علي ماأفاتها من جمال الوجود:

غدوت علي نفسي لثرب جاهداً وأمثالها لام اللبيب المترب

والنفس هنا مرادف الغريزة أو الطبع أو الجسد الطيني، لكنها قد تصبح في قول آخر هي الروح للتي تعاني من وطأة المادة، وهنا يكون سجنها في

الجسد الطيني أحد سجون-أبي العلاء المعري:

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظري، ولزوم بيئي. وكور النفس في الجسم الخبيث

" علي أنه لا يحفي الجسم أحيانا من اللوم والتعنيف، يقول:

فكيف لا تخبث النفس التي جعلت من جسمها في وعاء كله دنس
أو يقول:

فان لأجساد الأنام غرائزها إذا حركت للشر صاحبها لجا

والجسم بعد كل شيء هو - فيما يراه - الأداة التي يحقق بها الطبع
الإنساني ما يتوخاه من سرور أو آذاه^(١).

والطبع والغريزة مرادفان للجسد - أو النفس حال خبثها - ويقابلان في
الإنسان العقل والتحكم:

نهائي عقلي عن أمور كثيرة وطبعي إليها بالغريزة جاذب^(٢)

وأبو العلاء قد قرأ آراء الفلاسفة المختلفة والمذاهب المتنوعة في هذه
القضية، لكنه - فيما نعتقد - لا يدين برأي من آراء أي منها سواء كانت
القتوصية - كما ذهب بعض الدارسين - أو غيرها^(٣).

لأن دافعه إلى هذه القضية وغيرها هو عناؤه الشخصي، ومواجهته لها
كتردد أشعل له عجزه كل القضايا التي تتعلق بمصيره - كفرد أولا - في هذا
الوجود، ثم مصيره كإنسان، كذلك كان لا بد لتكوينه الثقافي أن يحثه على التأمل،
ويساعده على التتقيب.

ولعل بساطة حديث أبي العلاء عن هذه القضية - وغيرها - من القضايا
الفكرية - يؤكد كلماتنا السابقة:

إذا اقترنت بجسم الحي روح فتلك، وذاك في حالي جهاد^(٤)

(١) رسالو الهناء/ ص ٣٢.

(٢) ل/١/ ١١٣

(٣) قضايا العصر في لب أبي العلاء/ ص ١٨٥، ١٨٦

(٤) ل/١/ ٢٨٠

ولعل الجزء الهام من رؤية أبي العلاء لهذا الصراع، هو أنه لا ينظر إلي نتيجته بتفاضل، فهو صراع غالبا ما ينتهي لديه بغلبة الغريزة، أو الجزء المادي من الإنسان، وهنا نفهم لماذا أرجع أبو العلاء قوِي الشر إلي قوِي غيبية، واعتقد بالجبر، أسباب ميله إلي القول بالسبئية:

تجاوز هذا الجسم ، والروح برمة فما برحت تاذي بذاك وتصدا^(١)

والروح أن كانت مريضة، أو ضعيفة وتعلق صاحبها بالحياة، فهي كالنفس تحبث، وتضئ بالشفافية، أو عدم الشفافية:

ولو لا ضعف أرواح عرانا سفاها ما ابتهجن ولا ابتأسنه^(٢)

أن ما يبتغيه أبو العلاء من التفكير في هذا الصراع هو أن يتأكد من إمكانية غلبة الروح علي الجسد، ومن ثم إمكانية تفوق الإنسان علي فطرته السينة، وعلوه فوق ذاته ومادته المصنوع منها...

أبو العلاء إذن ينشد القوة المعنوية التي تجعله قادرا علي أن يقف علي هامش الحياة ناظرا إلي مغزياتها في غير ضعف، وغير حاجة إلي جهاد النفس، وينشد الانفصال عن الحياة دون ألم أو بكاء،.... وقضيته الكبرى في الوجود هي هذا المعني: أن ينفصل بلا حرمان، أن يعترف بقوة واقتدار دون أن يعاني ألم الاغتراب، ومن هنا حاول أبو العلاء طيلة حياته أن يصارع قيوده المعنوية طلبا لهذه القوة، لكنه تأكد من أن الوصول إليها لن يتأتى له- أو لغيره من بني البشر- إلا إذا انفصلت الروح عن الجسد، وكأنه بذلك ينفي اقتدار الجنس البشري علي طبيعته المتكونة من جسد وروح، ينفي اقتداره علي السمو، لذا يقول :

إن السيوف تراخ في أغمادها وتظل في تعب إذا لم تنمدا^(٣)

وهو بهذا القول ينفي عن البشرية كلها القدرة علي التحكم في مصيرها، ويحكم عليها بفشل المسعي إلي التفوق علي الفطرة السينة، ويحكم عليها بلا جدوى أي صراع علي ظهر هذا الوجود،.... وهذه المشاعر كلها هي اليأس

(١) ل/١/٢٨

(٢) ل/٢/٢٦١

(٣) ل/١/ص ٢٨٣

الحقيقي الداع إلى اشتها الموت

من لي بحسم، لا يحبس رزية
روح إذا اتصلت بجسم لم يزل
أن كنت من ريح فياريح اسكني
لكن، يمد كترية أو جلمد
هو، وهي في مرض العناء المكمد
أو كنت من لهب فيالهب أخدم^(١)

لذلك يشتهي جسدا لا يحس اشتها .

أن فقد البصر الذي أورث العناء جسد أبي العلاء وروحه، هو فاتحة
كثير من القضايا، ومفتاح فهم العزلة العلانية التي كان من دوافعها الإقرار
بفساد الطبع الإنساني، ومن ثم ذم أبو العلاء نفسه مثلما ذم البشرية كلها،
واعترل الحياة يانسا من الإصلاح، حتى بالتوحد الذي هو:

" اعداد لجساننا اعدادا بالصقل، واماتة الزواند^(٢) فقد أدرك فشل هذه
المحاولات، لأن تلك الزواند أو الرغبات والأمانى وتلك الحيوية الفريزية في
نفس أبي العلاء المعري ما فتنت تهذي داخله حتى إحالته إلي كائن منفعل،
محروم، ساخر، متألم أشد الألم، حانق أشد الحنق. ثم أن جوع هذه الزواند
وحرمانها جعلها جزء أصيلا من تكوينه العام لا زواند مهملة هينة، سهل
اصماتها.

الزمان في شعر أبي العلاء المعري:

يقف الزمان علي قمة المفردات الميتافيزيقية التي يواجهها المغترب،
فالزمان قوة متسلطة تشعره بضالته ووهنه، وتؤكد له معني ما من أعرق معاني
الجبر والعبث:

قد صحبنا الزمان بالرغم منا وهو يردي كما علمت الصحابا^(٣)

لقد كان " الإحساس العلاني بالزمن- لحد وجوه الكون الإنساني- فادحا
ومرهقا، لم ير في الزمن سوى وجه صخري قاحل ينخر بالشر، وينزل النقمة

(١) ل/١ ص ٢٨٤

(٢) عبد الله العلايلي/ المعري ذلك للمجهول/ الأهلية للنشر والتوزيع/ بيروت/ ١٩٨١م ص

١٠٣

(٣) ل/١ ص ١٠٥

بالإنسان"^(١) وإذا كان الإنسان يستشعر ثقل خطوات الزمن فوقه، فما بالناس بالمغترب الذي " استغرقتة" الحشرات علي كل فانت وأيب، وشنته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب"^(٢) فهو لا يري الزمن مدة تنقضي، وتورث حسرة فقط، بل يراه قوة من تلك القوى الغيبية التي يصارعها الإنسان، وتؤكد مسيرته المأساوية.

والواقع أن كل قضية من القضايا الميتافيزيقية تصلح لأن تعتبر قمة القضايا الفلسفية، وقمة مشاكل الاغتراب الميتافيزيقي، وأبو العلاء حين استشعر بعمق تسلط قوى الزمان علي الإنسان دفعه هذا إلي نفي العلة الغائية للوجود، ومن ثم دفعه إلي الارتكان إلي العزلة: " هنالك الله والزمن، تلك الصليب أو هذا السيف، لا شئ هنالك حقيقي غير تلك المشاكل والمتاعب، وعلي المرء أن يعيش مع الزمن، ويموت معه، أو يجب عليه أن يتحاشاه، ويتجاهله من أجل حياة أعظم، وأني اعرف أن المرء يستطيع أن يجد تسوية، فيعيش مع العالم بينما يؤمن بالأبدية" تتناثر تلك الرؤى الوجودية في شعر المعري^(٣).

فقد عاني أبو العلاء مواجهة بشريته التي تؤكد له دائما هشاشته، وقابلية وجوده للتلاشي، وتمكن كل الغوامض منه.

ويرجع استشعار أبي للعلاء للحاد للزمان- فيما نعتقد- إلي أنه عاني الحياة بعمق متواصل، وإلي أن تجربته معها أو قصته في تناقض مرير بين استئفال خطوات الزمن والاهاية بالموت تارة واستشعار الحرمان، والإشفاق من مغادرة الحياة تارة أخرى، وهو في الحالة الأخيرة يفزع من سرعة الثواني والدقائق التي تنديه من الموت قبل أن يتروذ من الحياة بالحياة.

وانفقت بالأنفاس عمري مجردا	بها اليوم ثم الشهر يتبعه الشهر
يسيرا يسيرا مثل ما أخذ المدى	علي الناس ماثن في جوانحه بهر
كذر علا ظهر الكئيب، فلم يزل	به السير حتى صار من خلفه الظهر ^(١)

(١) صالح البيظي الفكر والفن / ص ٢٢٢.

(٢) أبو حيان للتوحيد الإشارات الإلهية ص ١١٤، ١١٥.

(٣) لسطورة ميزيف/ ص ١٠١.

الظهر^(١)

والزمان ليس قوة ماضية تسعى بالإنسان إلى حلقه فقط، بل هو قوة تخفي في طياتها الاحداث، وحقيقة المصير الإنساني:

الساع أنية الحوادث ما حوت لم يبد إلا بعد كشف غطائها^(٢)

ولا يبدو الزمن لأبي العلاء إلا في صورة بشعة تؤكد تسلطه، وغموضه، وقسوته، فساعاته تارة كالأسود المفترسة^(٣) وتارة تبدو كالقطا المجنح في سرعة وثوبه^(٤) وتارة ثالثة تبدو كالحيات تهدد من يقرب منها بسوء المنقلب^(٥). ومن هذه الصور البشعة للساعات يتشكل اليوم ثقيلًا، وكأنه رحلة إنسانية كاملة الكأبة:

تداولني صبح ومسي وحنس ومرّ عليّ اليوم والغد والأمس
بضئ نهار ثم يخدر مظلم ويطلع بدر، ثم تعقبه شمس^(٦)

إن المغترب يتقف علي حافة الحياة، يراقب الأشياء والموضوعات والمواقف من خلال انفصاليه، لكنه في ذات الوقت غير منفصل، أنه لا يساري شينا، أو لا يعني شينا لأي جزء من أجزاء الحياة، لكن الحياة كلها تعنيه، وهنا... تكمن المفارقة، ومن هنا يبدو له اليوم للواحد بصبغه ومساه قديمين للزمان الكئيب الذي لا يخطئ في وطنه عليه:

بل الفتيان اعتاد قلبي أذاهما عزيان بالله- الذي ليس مثله
بشيمان أسياف الردي، ويهزان بذلان - في مقداره- ويعزان
بأهل وهوود أو جبال وجران^(٧) وكم فتكا - والحسن قد بان عنهما

وحين يقف المغترب أمام الوجود يشعر بضعفه، وشيئته، فيتوجع أبو

(١) ل/١ / ٢٠١ بهر تتابع النفس من الاعياء/ لسان العرب/ للجزء الخامس / ص ٢٧٠

(٢) ل/١ / ص ٢٣٠

(٣) ل/١ / ص ٢٩٣

(٤) ل/٢ / ص ٨٢ .

(٥) ل/١ / ص ٤٢٠

(٦) رسالة الهناء / ص ٨٩، ٩٠ للفتيان هما الليل والنهار هنا

(٧) ق/٣ / ص ١٠١٦

العلاء من عجز الإنسان عن رد أي فائت من الزمن^(١)، بل عن إيقاف سيرورة هذه الأوقات التي تهزأ من حلم الإنسان بالخلود^(٢).

عاش أبو العلاء نيفا وثمانين عاما، عمرا عريضا متسعا- لو كان لغيره-، أما هو فلم يجن منه إلا مراتبة الحياة عن بعد، وبحرمان شديد، لذلك فهو لا يفتأ يؤرخ لعمره ويحصيه، ويقف عند مرحلة مرحلة منه باكيا ظمأه المصاحب له:

شربت سني الأربعين تجرعا فيا مقرا، ما شربه في ناجر

كما يبكي الخمسين التي مضت في غير طائل، وكأنه قد أدرك أنه لم يعيش بامتلاء- علي حد تعبير الوجودية- فالواقع أن هذا الإدراك هو قضية أبي العلاء سواء في التعامل مع الحياة المادية التي عاشها، أو مع الحياة كمعني مجرد. فخلف كل موقف نفسي أو فكري لأبي العلاء "نقصان جسدي" يلح عليه دائما، ويهدده بأن النقصان حليفه في كل شيء.

أجزاء دهر ينقضين، ولم يكن بيني وبين جميعهن حوار
يمضي كإمراض البروق، ومالها مكث فيسمع أو يقال حوار^(٣)

وقضايا أبي العلاء الميتافيزيقية تحتل موقعا حيويا هاما من نفسه وفكره لأنها تتصل اتصالا وثيقا بمعني الحرية التي حرم منها، لذلك نجده يلح علي أن الوقت طائر لا يرجي أيا به ابدأ^(٤) ولا يرمي ولا يصاب بينما يهيمن علي الإنسان، علي قدرة الإنسان المحدودة^(٥) وهكذا، وخلال كل يوم من أيام الحياة العادية، يحملنا الزمن، ولكن تأتي لحظة، يكون علينا نحن أن نحمل الزمن فيها^(٦).

وقد وقف أبو العلاء قبالة المشيب، وراه علامة انتصار الزمن علي الإنسان، وبث من خلال هذه الوقفة كل مشاعر الحرمان من الحياة، والخوف،

-
- (١) ل/١ ص ٣١٦
(٢) ل/٢ ص ٨٢
(٣) ل/١ ص ٣٢١
(٤) ل/١ ص ٤٩
(٥) لسطورة سيزيف/ ص ٢٢
(٦) ل/١ ص ٢٤٩

المتر: المر

والسخط على الزمن:

أصاب جمري قرّة، فانتبّهت له والنار تنفّص صيفي حير أذفنها

وفي "فصوله وغاياته" يخطب أبو العلاء من مات شاباً حيث لم يعبث به المشيب، ولم يأكل من كرامة وجوده الإنساني، ولم يمّت شيئا قبل موته الحقيقي^(١) فالموت رحمة لأي كانن لأنه انقاذ من غوائل الزمن وفعل الأيام والشيب عزلة عن الحياة^(٢) لأنه انفصال عن حيويتها واشتعالها، وهو طريق إلى الموت في ذات الوقت... وحين ينظر أبو العلاء من خلال هذا المعنى إلى الحياة يجد الإنسان في عمومه شبحاً في الوجود:

ريع اللبيب من المشيب لأنه مازال يؤذن بانتقال جوار
تلك النسور من الوكور طوائر ومقادر من فوقهن طواري
أشباح ناس في الزمان يري لها مثل الحباب تظاهر وتواري^(٣)

والخوف من الزمن لا يترك أبا العلاء في سياق تفكيره في الحياة، فهو ينظر إلى تلك الحياة بعين بشرية الفزعة وإدراكه الفردي الضعيف اليأس، فيتلطف على أن تكون الحياة مكتملة، وأن يكون فيها فتياً شرخاً مالكا أدوات القوة والنماء:

زعموا لي أنني سأرجع شرخاً كيف لي، كيف لي وذلك التماسي

الصراع بين حب الحياة، وذم الحياة في شعر المعري:

نظر أبو العلاء المعري إلى الحياة بعين عجزه وحرمانه، فوجد الإنسان يأتيها مجبراً، ويعيش فيها شقياً أو سعيداً دون إرادته، ويشقى بالصراع بين الخريزة والروح، منتهياً به الأمر إلى أن يجبر على اتيان القبانح لأنه خلق ناقص ضعيف، وخلال هذا الصراع، وغيره من الصراعات- يمضي الزمن بالإنسان، ويتنفه إلى هوة الموت.

إن حياة أبي العلاء المعطلة، وقواه المتوقفة لا بد أن ترديه في تفكير

(١) للفصول والغايات/ ص ١٤٤ .

(٢) للفصول والغايات/ ص ١٥٧ .

(٣) ل/١ ص ٤١١

منفعل متواصل، وهذيان ساخط، فالإنسان- أي إنسان إنما هو كائن تقوم حياته، ويكون تمييزه بالإرادة والفعل "فإذا اعترض طريق الإرادة معترض، تولد عن ذلك الشقاء، ونحن نلاحظ أن الشقاء يزداد حدة وشدة، تبعاً للارتفاع في سلع الكائنات حتى يصل إلى أعلى درجاته عند الفرد العبقري، ومعني هذا الارتباط أن الإنسان كلما نفذ إلى أعماق الوجود الفني أن ماهيته الأصلية هي الشقاء، ورأي وجوده ما هو إلا سقوط مستمر في الموت^(١).

والعلاقة بين الإنسان معطل القوى، وحياة شحيحة قبيحة في عينيه، لا بد أن تكون علاقة شائنة قائمة على الذم المتواصل، لذلك يحتل نم الحياة في شعر أبي العلاء قمة عالية^(٢) حيث لا يري الحياة إلا خوفا دائما وتهديدا للعلاقة التي أدرك حقيقتها:

وأمن دنياك من جهل تولده وصاحب العقل فيها خانف وجل^(٣)

ولأن جذور الحياة ننسة فهو لا يفتأ يطلب الطهور، وهذا الطهور هو انعكاس لرغبة أبي العلاء في الانفصال عن الحياة، والتصل من تبعتها:

تخشي الحياة، وبنينا وإن عشقت مثل الوطيس تلطي ملؤه سعر
مازلت أغسل وجهي للطهور به مسيا، وصبحا وقلبي حشوه دعر

وإن القلب الممتلئ- المحشو- بالذعر ليصور عزلة صاحبه وتر حياته، والرغبة في الطهور، أو الانفصال عن الحياة لا تتأتي إلا بمقاومة الحنين إليها أولا، لذلك يتظاهر أبو العلاء بأنه قد قنع بأن الحياة لا تناسب الحي^(٤) وأن ثوبها عار عليه ونوها منه يصيبه بخوف ملازم مضم^(٥).

لم يدرك أبو العلاء إن نمه الشديد للحياة مظهر قوي من مظاهر تعلقه بها، وإن محاولات نفي قيمتها تعكس ضعفه الشديد عن تركها ومقاومتها، لأن "الأمل لا يمكن تجنبه إلى الأبد، وأنه يستطيع أن يقلق حتى أولئك الذين أرادوا

(١) فؤاد كامل للفرد في فلسفة شوبنهاور دار للمعارف ١٩٦٣ مص ٨٦ بتصرف

(٢) صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، منشورات اقراء، بيروت لبنان، ص

(٣) ل/٢/ ١٨٢

(٤) ل/١/ ٣٠٩، ٣١٠.

(٥) ل/١/ ٣٥١

(٦) ل/١/ ١٣٤

ان يتحرروا منه^(١) أو يتمردوا عليه، ففي طيات التمرد والسخرية تبدو مشاعر
أخرى علي النقيض منهما رغم كل محاولات التهرب يقول مخاطبا الحياة:

إني نمتك، فاشهري أو اشري لا أهرب المعمور، والمركوزا

عنت السليم، وما عنت سلامة لكن بسمك مرهفا منكوزا^(٢)

إن الحياة في وجدان أبي العلاء تحمل الأحياء ميسم عذابها^(٣) بما شكل
تبريرا معقولا كي يطالب بالاعتراب عنها أو ينادي بـ:

(١) لسطورة مزيف/ ص ١٢٢

(٢) ل٢/ ص ٦ للمركوز الرمح، المعمور/ السيف المنكوز من لدغته الحية

(٣) ل١/ ١٢٥

"العيش في الموت"

أو

"الموت في العيش"

ومن عاين الدنيا بعين من النهي فلا جنل يفضي إليه ولا كبت^(١)

وهنا يدخلنا أبو العلاء قهرا إلى حديث عن تعقد نظرتة إلى الحياة والموت والزمن وكل الأطراف الميتافيزيقية التي تساهم في خلق اغترابه، نقول أن أبا العلاء لم يذم الحياة، بل ذم الموت، لأن الحياة التي يشكوها في شعره، ليست حياة بل موت، فهو يصف حرمانه منها ويصف وجودا منطويا على موت.

أبو العلاء ذم الحياة التي لم تعطه عيشا مكتملا، وذم الحياة الحاوية على الموت. من وجهة نظر ميتافيزيقية، فنحن "إذا كنا كثيرا ما نخشي الحياة نفسها، فما ذلك إلا لأننا نشعر، بأن استمرار الحياة هو في صميمه انقضاء للزمان، وانقضاء الزمان معناه السير الوئيد نحو الموت، أو الانحدار السريع نحو هاوية العدم، ولعل هذا هو ما حدا ببعض المفكرين إلى القول بأن الحياة إنما هي الموت نفسه، لأن الإنسان يشرع في الموت بمجرد ما يولد، وهذه الفترة المحدودة التي يحيها، إنما هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته."^(٢)

تتدخل إذن تضاييا أبي العلاء الميتافيزيقية، فتتعدّد مشاعره تجاهها، وتتعدّد مراقفه، لكنها كلها مشاعر ومواقف حميمية الانتماء إلى شاعر مغترب وهذا الموقف المركب يفسر موقف أبي العلاء من الموت الذي يصبح انتماءه الوحيد حين تثقل عليه الحياة، ويصبح جحيمه العظيم حين تثقل عليه شهوته إلى الحياة.

الموت يورق ذاكرة الإنسان الأول، حيث دفعه إلى شجرة الخلد، طمعا في "ملك لا يبلى"، وأنزله إلى الأرض يعمرها، ويزينها في محاولة نبيلة لمقاومة هذا الموت، وتجنبه.. وقد أدركت كل الأديان السماوية قيمة الإنسان وبشاعة الموت في عينه، ومن هنا فقد اجتمعت كلها على تحريم قتل النفس،

(١) ل ١٤٩/١

(٢) زكريا إبراهيم مشكلة الإنسان/ ص ١١٨

حيث يشكل الموت أكبر المواقف الحدية التي تهدد الوجود للبشري، وتتف دون استمراريته وبزوغه.

وقد وقف الشاعر الجاهلي كثيرا أمام معني الموت، حيث تطوت الصحراء علي ألوان شتى منه: لنقطاع المطر، غياب الحبيب، اندام للكلأ الرحيل للمستمر، الحروب المترصلة، تغلب مزاج للصحراء.. إلي آخر ذلك بما يجعل من الزمان، والمكان تهديدا دائما للشاعر الجاهلي خاصة، والإنسان العائش في العصر الجاهلي عامة. وقد ظل اللطليل إلي يومنا هذا، يعكس شعور الجاهلي، بالموت والحياة، ويعكس نظرتة الإنسانية إلي الوجود.

ولقد لفت نظر أبي العلاء هذا اللطليل، فرأي فيه لونا طريقا من للتناسخ، هو تناسخ موقف للبشرية من الموت، ورتاء الحياة^(١) فكان للتاريخ الإنساني يعيد ذاته في هذا اللطليل، فالطليل شاهد علي رعب للتاريخ الإنساني من الموت.

وقد اختلف موقف للشاعر العباسي من الموت، عن موقف للشاعر الجاهلي اختلافا جوهريا، حيث أدت الحياة المعقدة، ولثقافات المختلفة، والاختلاط العنيف بين الأجناس والأديان والمعارف ولتغات. لدي كل ذلك بالشاعر العباسي إلي أن يري وجوده للبشري بطين للفكر العميق لتلقم علي الثقافة المعقدة، والرؤية التأملية للمعذاة بالمعرفة، لا للنابعة من لفطرة قتل.

فاذا بالشاعر العباسي يري وجوده متناهما في كون لا متناه، ويرى ذقته ضئيلة الحجم بالقياس إلي هذه الأطراف للمترامية حوله.

وقد أشرنا- سابقا- إلي موقف بعض الشعراء للجاصيين من الموت، ونظرتهم إليه، فاذا جننا إلي شعر أبي العلاء المعري نراه قد أترد جزءا كبيرا منه- ومن إبداعه عامة- لطرح موقفه من الموت.. هذا الموقف الذي خلقه شعوره الداعي بالعجز وللتقصان.

(١) يقول المعري.

مضى الوقت للكندي وللسقط غابر
تولى ابن حجر لا يعود لشأنه

صلحت ديار الحي ابن لييد
وطالت ليال والمعالم بيد

الموت في شعر أبي العلاء: قمة القضايا الميتافيزيقية.

تفاقم إحساس أبي العلاء بعجزه الجسدي، ليصبح موقفا إنسانيا من الوجود، وقد حظي سقط الزند بكثير من مرثي أبي العلاء الإنسانية العالية، من هذه المرثيات في الفقيه الحنفي، التي لا رالت تلفت الأنظار إليها، لأن أبا العلاء وقف فيها علي قمة الرثاء المتوجه إلي الإنسان في عمومته^(١). بل إلي رثاء الكون كله، وكأنه يرثي المعنى المجرد للحياة، يرثي قيمة الوجود المحضة.

كان موت الأب بالنسبة إلي أبي العلاء مختلفا اختلافا كاملا في تأثيره عليه عن موت الأم، فقد كان موت الأب بمثابة الانتباه الأول للموت:

لقد مسخت قلب وفاتك طائرا	فأقسم الأيستقر علي وكن
يقضي بقايا عيشه، وجناحه	حثير الدواعي في الإقامة والظعن
كان دعاء الموت باسمك نكرة	فرت جسدي، والسلم ينفس في أنفي

كان موت الأب بالفعل هو النكرة التي لمست أركانه المتهينة للشعور المأساوي، والتساؤل عن الحقيقة، لذلك تمثلت مرثيته في أبيه، بالنظرات الحيري إلي الموت، وبالتساؤل الخائف من كنهه، والوقفة الحائرة أمام مظاهر الحياة، ومظاهر الموت المتداخلة التي تفض علي الحي.

لكن أبا العلاء توقف عن رثاء الأشخاص بعد أن رثي أمه^(٢) أي أنه بدأ مرحلة جديدة من الرثاء، ومن النظر إلي الوجود، هذه المرحلة الجديدة هي العزلة، للعزلة في أدق صورة، وأكملها من الناحية النفسية، والمادية، فموت الأم - كما سبق وزعمنا - كان فقدًا حقيقيًا لبصره، فقدًا لجنوره وانتمائته^(٣)، موت الأم أشعره بغربة خاصة هي غربة فقد الأحبة^(٤)، وأوقفه علي لون كئيب من الحياة جعله يصدف عنها^(٥)، وقتل فيه كل محاولة لمهانة الدهر، أو التزلف

(١) د. بنت الشاطي/ مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ٧٧.

(٢) أحمد الشايب. أبحاث ومقالات/ ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) د. بنت الشاطي. مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ١٦٥.

(٤) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي/ ١٠٩.

(٥) د. طه حسين/ أبو العلاء المعري/ المجلد ١٠/ دار الكتاب اللبناني/ ط ١/ ١٩٧٤م/ ص

إليه، حيث بان له الدمر خزوبا، فاسيا^(١)، فكثُر في شعره الإحساس بالاعتراب^(٢)، وكان هذا الإحساس من أهم نوافعه إلى اشتهاه الموت^(٣)

كان موت الأم هو موت الذات بالنسبة لأبي العلاء المعري، لأنه أمات العلاقة بينه والحياة في عمومها، تلك الحياة التي كان يحاول ترويضها، وإرغامها علي تتبله في آخر محاولة يانسة هي رحلة بغداد، بل كان موت الأم هو موت الإمكانية في حياة أبي العلاء، يقول في إحدى رسائله إلي خاله أبي سبيكة، بعد وفاتها:

"لا أمل بعدها خيرا، ولا أزيد في المحن إلا إضاعا وسيرا"^(٤)

والإنسان "يعيش قبل مواجهة اللاجودي، بالغايات، بالاهتمام بالمستقبل، وهو ما يزال يظن أنه من الممكن توجيه شئ ما في حياته، والحق أنه يتصرف، وكأنه حر، حتى لو كانت كل الحقائق تناقض تلك الحرية، ولكن الأمور تتقلب كلها رأس علي عقب، بعد اللاجودي، فكل ذلك يصبح كاذبا بطريقة مدوخة بلا جدوي الموت المتوقع، والتفكير في المستقبل، أي وضع الغايات، وتفضيل أمور معينة"^(٥).

وكان أبا العلاء قد تفرغ بعد موت أمه لمواجهة الظلام، أو أنه واجه الظلام بشكل كامل "فراح يتأمل كل شئ"^(٦)، ولكن من خلال هذا الظلام ذاته، هذا الظلام الذي أصبح طرفا في ثنائية خالدة في شعر أبي العلاء، هي ثنائية الظلام والنور المساوية لثنائية الحقيقة- وهي الظلام عند المعري- والمستحيل- أي النور من خلال هذا الظلام نظر أبو العلاء إلي "سر الموت، فلم يره في مظهره الضيق القريب حادثا متكررا تختم به حياته كل فرد، بل راه علي حقيقته الخالدة العميقة، راه كما بدأ منذ القدم لبدائة الحكماء وأصحاب الأديان، كما تبطنه من قيل بوذا وكنفشيوس وماني: حربا سرمدية قائمة بين قوتين حقيقيتين ميدانتهما كل نفس حية، وكل ذرة في طباق الأرضين وأجوار السموات- هاتان

(١) نور الدين يوسف/ الشعراء الثلاثة/ ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(٢) ل ٢٨٧ / ذات المعني لذ ٧٨، ل ١٧١ / ٢ .

(٣) ل ١ / ٥٨ .

(٤) إرشاد الأريب/ من تعريف القنماء/ ص ٨٤ .

(٥) أسطورة سيزيف/ ص ٦٦ .

(٦) نثر أبي العلاء/ ط ١ / ١٩٨٥م/ ص ١٠٨، ١٠٩ .

القوتان- هما الخير والشر، هما النور والظلام، أو هما الحق والباطل، أو هما البقاء والفناء"^(١)

فقد صب أبو العلاء في رؤيته للموت، كل رواده لقضايا الجبر، والخير والشر، والصراع بين الروح والمادة، وفلسفة الزمن الميتافيزيقية، وقد ألف أبو العلاء رسالته إلي "ملك الموت"^(٢)، وهي للأسف ليست بين أيدينا لنصف طرحه فيها، وإن كنا نستطيع أن نرى بعض ملامحها في سياق شعر المعري ونثره.

ولأن أبا العلاء نظر إلي الموت من مسافة قريبة- أي من نقطة مساسه به- في فقد البصر وموت الأم وبعض الأحبة، كانت رؤيته للموت رؤية انفعالية مضطربة حادة، فالموت في عومه لا يعني عند المعري إلا القهر، وفقد التوازن، فهو لم يكن سعيدا في صراعه للقمع مثل سيزيف^(٣) بل كان غاية في الجهد والسخط.

فبرغم كون الموت الحقيقة الوحيدة في الحياة- الوحيدة التي نعلمها- فإن أبا العلاء يستشعر تمرد الروح عليه، والتي تعاني الروح في دنوها منه.

'تراع إذا تحس إلي تراها إيابا، وهو منصبها القراب'^(٤)

وحين يقول أبو العلاء أن القيمة الوحيدة المتحصلة من الوجود هي الموت فإنه لا ينظر بذلك إلي الوجود نظرة سوية مكتملة، لا يراه حياة، وموتا معا، بل يراه موتا فقط:

لو نخل العيش لما حصلت شيئا سوى الموت يد الناخذل^(٥)

وكانه بهذا القول يدعو الحياة كلها إلي الموت، منكرًا علي الأحياء الاطمئنان إلي العيش، حيث يكون الموت طريحة متواصلة، تقال القوى فما بال الضعيف؟

(١) العقاد ولمازني/ الديوان/ ج١/ ط٣/ مطابع دار الشعب/ ص ٢٢، ٢٣.

(٢) الإنصاف والتحري/ من تعريف القدماء، ص ٥٣٤.

(٣) لسطورة سيزيف/ ص ١٤٣.

(٤) ل١ / ٨١ تحس: تماق القراب: القريب.

(٥) ل٢ / ٢٤٨.

فأرقبي يا عصام يوما ولو أنك في رأس شاهق عصاء^(١)

إن أبا العلاء حين يصور تخاذل الأكوياء أمام قوة الموت إنما يقوم بعملية تعويض نفسي عن عجزه، وفي ذات الوقت يبرر ركونه إلي العزلة، العزلة بكل صورها، فهي في كل حال لون من ألوان الموت، وكأنه بسط أمامنا مبررات نفض يديه من الحياة، واغترابه عنها.

والموت في شعر أبي العلاء لا يدهام إلا الحياة المكتملة المضينة، فهو يفاجئ الطيبة الرائعة في مراعي الكلا- المتلائي بالحيوية:

فالظبية الغيداء صبحها الردي أدماء، ترتع في النبات الأعيد^(٢)

ويدهام كذلك الأنفس المسرورة بالصبح^(٣) والحمامة المتمتعة بطلاوة الروض^(٤) إن أبا العلاء في كل هذه الصور لا يصور إلا إقباله الظامن علي الحياة الذي ووجه بالعجز والعماء والتوقف، فيؤكد من خلال هذا الصراع أن الوجود قائم علي اللامنطق، وأنه يرتكن إلى قوانين تهدد الحياة البشرية بما يبرر اغتراب ذاته أمام ذاته .

والحياة كلها يعمها حبل "طويل من الموت"^(٥) يطول ويقصر حسب الإرادة العليا في الكون.. وحين نعود إلي رأي العلاء في الصراع بين الروح والجسد نتذكر أنه قد وسم الجنس البشري كله بالنقص، والقطرة الفاسدة، وهنا يتكئ في تبريره لقدرة الموت علي هذا الوصف، فالموت قوة لأننا حلفاء نقص:

نموت لأننا حلفاء نقص ويبقي من نترد بالكمال^(٦)

لذلك لا تجدي "درع" أبي العلاء في الوقاية من الموت^(٧) تلك الدرع التي وقي نفسه بها من المجتمع وفساد الحياة، لا تستطيع مجابهة الموت، لأن

(١) ل١/٤٧، وذات المعني ل٢/٣٥٩.

(٢) ل١/٢٨٣.

(٣) ل١/٣٧٢.

(٤) ل١/٣٠٠.

(٥) ل١/٢٢٥.

(٦) ل٢/٢٣٨.

(٧) ل١/٤٣.

في وجود ذاته ما يدل علي أننا نتوجه قداما إلي الموت^(١) في رحلة إلي الفناء تتفاسم فيها القافلة البشرية جرعات الموت لمتساوية^(٢).

وعلي الرغم من وحشية الموت، وقُدومه الحتمي، فإن لأبي العلاء حاجة فيه.

أسخطه الموت ثم أرضته عتياه، فقال الرضا من السخط^(٣)

هذه الحاجة تجعله يغبط من مات، فهو فائز "ظفر بالفائدة من فاد"^(٤).

"وما أقسي أن يكون الموت أهلا للشاعر، واستدرك فأقول: أن الخلاص بالموت لم يكن أملا لأبي العلاء، بل كان من هذيان أمانيه."^(٥)

ولابد لأبي العلاء للذي أقعده بصره، وأشعره بدرجة من درجات الموت، لابد له- أن يشتهي الموت حيث العجز موت بطئ، قاتل، يقول:

طال الثواء، وقد أني لمفاصلي أن تستبد بضممها صحراؤها
فترت، ولم تقتر لشرب مدامة بل للخطوب يغولها إسراؤها^(٦)

فحين يستبد الواقع بالإنسان، ويسميه العنت، فإنه لا يدفعه إلي اشتهاء الموت فقط، بل إلي أن يهش للموت.. يطرب له^(٧) إلي حد الشبق، ومرادة فكرة الانتحار، كحلم وأمنية^(٨).

قالحية في عين أبي العلاء ليست إلا شقاء متواصل،^(٩) والدهر ليس من رجاء فيه لأنه دائما يخسف آمال الإنسان^(١٠)، أما الخلاص من كل هذا فهو إماتة التكوين الإنساني^(١١) بالموت المنقذ^(١٢) الذي يصوره أبو العلاء في صورة

(١) ل/٢/ ٢٧٣.

(٢) ق/٤/ ١٤٣٢.

(٣) ل/٢/ ٧٧.

(٤) للفصول وللغيات/ ٥٤ فلا مات

(٥) مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ٢٣٣

(٦) ل/١/ ٦٢.

(٧) ل/١١/ ٧٣.

(٨) للفصول والعيان/ ص ٣٦٠.

(٩) ل/١/ ٥٩.

(١٠) ل/١/ ٢٠٣.

(١١) ل/١/ ٢٧١.

(١٢) ل/١/ ٢٧٣.

صورة ساخرة بردا في الشتاء، دوناً في الصيف^(١)

وتلك السخرية الفاجعة لا تبغي إلا تأكيد معني فناء الجنس البشري

إن الذي نظم الأناشيد قضي له بسلوكه النكبات حتى ينثرا^(٢)

فالموت ليس معني مجرداً براد لذاته، بل أن الهرب إليه هرب من

شقاء الحياة^(٣)

حين يقول أبو العلاء: أن الموت خير لمن كبرت سنه وعشت عيناه، فإنه يترك لنا تقدير المسافة بين مأساة هذا الرجل ومأساته هو الذي انتفي ضياء العين عنه نيلاً وثمانين عاماً، كما أنه يؤكد تفسيرنا بأن إحساسه الفاجع بالعجز هو دافعه الأول والأقوى إلي اشتهاه الموت:

والموت خير لمن تألمه من عمر جاري للعب مرتعش
لا يقرأ السطر بالنهار وقد كان يجلي كالمصقر ثم، عشي^(٤)

وكانه لم يجد من أنواع العجز الذي يبرر له- ويبرر به- التوجه إلي الموت إلا العجز الذي يلحق بالعين، وهو صادق في هذا الاختيار، لأنه إنما يصور ذاته التي رأت العجز بسم كل للحياة ويفقدها كل معني، ويملؤها بالتأوه، ونداء الموت.^(٥)

والعجز يتناسب تناسباً طردياً مع الحرمان، والحرمان داع من دواعي طلب أبي العلاء للموت، بما ينفي عنه أي معني تقليدي للزهد، وأي معني من معاني الانصراف الحر عن الحياة. فهذا الحرمان- كما رأينا سابقاً- قيده عند مرحلة من عمره^(٦) بقيسها بما حصلت يداه، من متع الحياة، فيفجؤه الواقع المرير بأنه لم يحصل إلا اللاشئ، فيهب بالموت لشفاقاً علي نفسه من القناعة بفتات الحياة^(٧)، واشفاقاً علي روحه من النذل.^(٨)

(١) ل ١ / ٣٦٦ وذات المعني ل ١ / ٨١.

(٢) أبو العلاء ولزومياته / ٥٢١.

(٣) ل ٢ / ٦١

(٤) ل ٢ / ٢٤٥

(٥) ل ١ / ٣٠١ / ٢ / ١٦٩، ل ٢ / ٢٩٨.

(٦) رسالة الهناء / ج ١ / ص ١٤٣

(٧) النصول والفتايات / ٤٤٣

"قد عشت زمنا، فما رشت، أبركي يا مطية، فهذا المناخ"^(٢)

والداعي إلي عزلة أبي العلاء^(٣)، هو ذاته داعيته إلي الموت وهو غياب الماء، أو انصراف الحياة:

لم نهجر الماء إلا بعد تجربة لقد شربنا فلم تذهب بها الحرر

لذلك يشترط أبو العلاء- أن جاز الشرط في هذا المجال- أن يكون نقله إلي "مرحلة ما بعد الموت" نقلا إلي سعة من الحياة الأخرى، ومتسعا من القدرة والرحمة، فيخاطب الله راجيا بقوله:

إن كان نقلي عن الدنيا يكون إلي خير، وأرحب فانقلني علي عجل

وإن علمت مالي عند آخرتي شرا، وأضيق فأنسا، رب في الأجل^(٤)

وفي أبيات رائعة يتصدي أبو العلاء لمدح الموت، وبيان فضائله، مفقا بين الحياة والموت بفارق واحد: الحركة والجهد، فالحياة حيوية وعباء وسعي، والموت همود، وخمول.. ولا بد أن يطيب الموت لأبي العلاء إذا كان معناه السكون والراحة من الشقاء، لأنه يداوي جرحه الأول: جرحه من عجز بصره، فالحديث عموما عن الموت يهدده لأنه يساعده علي أن يخفي عجزه في طيات عجز البشرية الكلي قبالة الموت، فيصبح لسكونه وتوقفه مبررا قويا منضويا تحت مبرر سكون الجمع البشري، وضعفه، ويضيع الإحساس بالأزمة الفردية، والشعور بأنه وحده غير فاعل:

يدل علي فضل الممات وكونه إراحة حسم أن مسلكه صعب

ألم تر أن الموت، تلقاك دونه شدائد، من أمثالها وجب الرعب

إذا انتزعت أجزاءنا، حط ثقلنا ونحمل عبئا، حين يلتئم الشعب

وأمس، ثوي راعيك وهو مودع ولو كان حيا، قام في يده قعب

(١) السابق/ ص ٢٢٤ .

(٢) السابق/ ص ٤٣٠ .

(٣) ل ٢٠٨ / ١ الحرر جمع خزة وهي العطش

(٤) ل ٢٣٠ / ٢ .

"إن الراعي الذي ثوي هو الحياة نفسها، هو أنت وأنا، وهو والوعاء الذي يحمله الراعي هو كل ما يقيم الحياء، ويجعلها ذات مغزي يحرص عليه، أننا نجد الراعي يؤلف صورة قديمة العهد في تاريخ البشرية، وقد اقترنت النبوات- مثلا- بالرعي، وصورة الراعي علي الدوام، تختصر أكرم جانب في حياة الإنسان، وقد أشار بعض مفكري الإنسان إلي أن اللبن الذي في الوعاء، يرتبط بفكرة الحياة الخيرة والقطرة، ونحن نخزن لأن الراعي قد مات، لأننا نعلم أن الإنسان الطيب القلب انفق حياته في رعاية الإنسان. وظل- حياته- يدعو إلي السلام والبقاء، ولكن "الموت" أدركه، ولم يكن أبو العلاء إذن يفكر تفكيراً خالصاً للمنطق، أو وحدة الجهة، وإنما يفكر تفكيراً مزدوجاً، ويتوزع النص بين ظاهر وباطن، ... فأبو العلاء يمزج بطريقة ما- بين طريقين- في النظر إلي الموت، يقول أبو العلاء إن الموت نروة الحياة المجدة. فالحياة بمعناها الحقيقي فعل مستمر، ولا شك أن أبا العلاء فكر كثيراً فيما درج عليه معظم الشعراء من قبله، حين نظروا إلي الموت علي أنه هزيمة للحياة، ولكنه كان أوسع أفقا من أن ينتهي إلي الطرف المقابل تماما، لذلك وثب بين الأمرين"^(١).

فالموت إراحة من العجز لأنه في عمومه إيقاف لكل قدرة أو عجز. والموت كذلك إنقاذ من الاغتراب الاجتماعي- كما أشرنا في الفصل السابق- الذي هو لون من ألوان العجز أيضا، العجز عن التواصل مع الأحياء، بل مع البشرية في عمومها.

بطن البسيطة أعني من ظواهرها فوسعا لي أهرب من سعالها^(٢)

إن عزلة أبي العلاء في بيته لم تعد كافية لتسد عليه منافذ اشتهاه للحياة، إذ اخترق هذه العزلة إلي الخارج بحواسه جميعا، وظمته إلي الحياة وإلي الأحياء، لذلك لم يعد أمامه إلا الموت منجي من هذا الاستهزاء وهذا الحرمان، إن القبر أروح المنازل وأكثرها إيناسا.

أعني المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس فيما أعلم الكفن^(٣)

(١) د / مصطفى ناصف. دراسة الأدب العربي/ ص ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ بتصرف

(٢) ل / ٩٣ / ١ وذلك المعنى بطريقة الاستدلال ذاتها ل / ١ / ٤٠٨

(٣) ل / ١ / ٤٢٢ وذلك المعنى ل / ٢ / ١٦٣.

وكان أبو العلاء دقيقاً في قوله: فيما أعلم، فهو لم يخبر من متع الحياة، شينا ليكون حكمه عاما عليها، وفي ذات الوقت هو يجعل من جهله وعدم درايته برداء الحياة داعيا منطقيا إلي انتهاء رداء الموت، إذ لو ذاق الحياة الصحيحة ما تاق إلي الفناء بل كانت تصالح مع الحياة ومع فكرة الموت أيضا. (١)

إن كل دوافع الموت جعلت أبا العلاء يظن بنفسه القدرة علي تحمل عواقبه، وبشاعة لهوه بالتكوين الإنساني (٢) - رغم أن هذا اللهو ذاته سيكون من دواعي خوفه من الموت كما سنرى بعد ذلك- إذا يكفيه أن الموت يقيه شر الصراع مع المجتمع (٣) حتى أنه رغم قوة الموت- يوصي مؤكدا رغبتَه في اعتزال الأحياء بعده، فهو لا يريد منهم ما يعتاد من زيارة القبور والترحم علي المانت (٤).

الموت، أو الانتماء إلي الموت اغتراب عن الحياة، وقد أكد لنا أبو العلاء أنه يعيش كظل (٥)، وأنه لا ينتمي إلي الحياة بأية صلة:

جسدي خرقة، تخاط إلي الأرض فيا خانط العوالم: خطني (٦)

الاغتراب هو اختلال موازين الحياة في عين المغترب، هو عيشه المقياس، لذلك يتعامل أبو العلاء في شعره مع الحياة بمنطق معكوس يري فيه الموت، وجودا، وعيشا أصيلا، يري العيش تواجدا مزيفا واغترابا:

عيشي سلتي، ورمسي غمدي فأقربوني منه، ولا تقربوني (٧)

إن لوذ أبي العلاء بالموت، هو ذاته الالتجاء إلي العزلة المادية، إذ كل منهما هرب من مواجهة الحقائق، وعراك الشقاء، كلا منهما يمثل الظلام لأبي العلاء، ذلك الظلام الذي صاحب عينيه طويلا، وجعله يظن في الليل الطمانينة والسكينة والعود للخائفين الضعفاء، حيث النهار مواجهة وفعل وحركة تتكا جرح العجز:

(١) ل/٢/٣٤٣

(٢) الفصول والغايات/ ص ١٥٧ وذات المعنى ٦٨.

(٣) ل/٢/٣٦٨

(٤) ل/٢/٩٠

(٥) ل/٢/٢٤٨

(٦) ل/٢/٣٩٥

(٧) ل/٢/٣٩٥

وإذا النهار خُشيت منه غوانلا

فعليك من ليل يعينك حنسا^(١)

والمانتون لا يصارعون ثنائية الليل والنهار، أو النور والظلام، أو العجز والتقدرة، أو الإغماض والوضوح، لذلك فحين يرسل أبو العلاء إلي أمه وأحبائه سلاما في دار الموت يحمله حسده إياهم علي هذه النعمة:

"سلم الله عليكم أهل ديار، لا يشعرون بتبليج الصبح، ولا ترجل النهار."^(٢)

إن الحياة المشتملة علي الجبر^(٣)، الخاضعة لقوة الزمان^(٤)، السائرة قنما نحو الموت، هذه الحياة حياة تدعو إلي اشتهااء الموت، لذلك "يكشف شعر أبي العلاء عن الغياب الأصلي في الحياة، فالحياة غائبة جوهريا، لا الآن وحسب، بل أمس، وغدا، فليس العالم والتاريخ إلا سلسلة من الغياب الدائم الحضور، وليس الإنسان إلا سقوطا متتابعا ينتظر نهايته، هكذا يستعجل أبو العلاء الموت، كأنه يرفض وجودا يحدده الانتظار"^(٥) أو كأنه يطلب الموت هربا من التفكير في مشكلة الموت المعقدة^(٦) ورفضاً لهيمنة الجبر.

حين أراد أبو العلاء أن يصور قيود الموت ومظاهره، وتسلمته علي حياة الحي، لم يجد لثق من "البرة" أو قطعة الحديد التي توضع في أنف البعير، تلك البرة لم تأت إلي خياله عبثا، بل أتت من انفعال حقيقي ومعاناة أصيلة من قيود الموت، والبرة لا توجع إلا الأنف، الذي لا يمثل شيئا هنا قدر تمثيله للأنفة والكبرياء الإنساني، أما البعير فهو شديد الشبه بالمغترب الذي يحمل فوق ظهره كل قضايا وجوده عامة، وهو يشبهه أيضا في محدودية إدراكه، وخنوعه للركل والسياط، وانحناء رأسه الدائمة، وظهره المتقل دوما، وسيره المتواصل دون كلال أو نهاية.

.. إن "البرة" - حين يكشف لنا أبو العلاء في أبياته ما تمثله له - نراها تتمثل رمزيا في كل أركان الوجود التي تنقل علينا: الزمان والمكان: الليل

(١) ل ٢٢ / ٢٢

(٢) الفصول والفتايات / ص ٥٢

(٣) ل ٩٥ / ١١

(٤) للفصول والفتايات / ص ٤١٩

(٥) لئونيس / مقدمة للشعر العربي / ٦٣، ٦٤

(٦) د مصطفى ناصف / دراسة الأدب العربي / ص ٢٣٨، ٢٣٩

والصبح، القَيْظ والقِر . ال . و وأنها تتال من أنف الإنسان، من شممه .
مالي بما بعد الردي مخبرة قد أدمت الأنف هذه البيرة
الليل والإصباح، والقَيْظ والإيراد، والمَنْزَل المقبرة
كم رام سبر الأمر من قبلنا فنادت القدرة: لن تسبره
عشنا وجسر الموت قدامنا فشمّر الآن لكي تعبره^(١)

الموت في نظر المغترب قد يكون تحررا من كل شيء، لأن وجوده في الحياة قيد "والإنسان اللامجدي كذلك الذي يتجه تماما إلي الموت الذي اعتبره هنا أشد الأمور اللامجدية وضوحا، تشعر بالانطلاق من كل شيء خارج ذلك الانتباه المنفصل المتمركز فيه، أنه يتميز بالجبرية، بالنسبة للقواعد المألوفة"^(٢).
وكان الاغتراب الحقيقي لأبي العلاء، إنما كان اغترابا عن الحياة، وكان انتماءه الأصيل إلي الموت، وهذا ما حدا به في بعض الأحيان أن يبث وغبته في أن يتخلص بيده من حياته^(٣) لأنه- كما يقول الوجوديون- "لا يشعر أنه في بيته":

ابني بجهلي، دار الست مالكتها أقيم فيها قليلا، ثم انصرف^(٤)
وهنا لا يصح إلا الرسو علي شاطئ الموت انتماء، واحتتاعا حقيقيا .
كأنا في السفائن عائمات وعند الموت ألقيت المراسي^(٥)

خبرني أبي العلاء المعري من الموت، ودواعي هذا الخوف:

ان موقف أبي العلاء المزدوج من الحياة، ينتج موقفا مزدوجا من الموت أيضا فطلي للرغم من ترحيب أبي العلاء بالموت، واقتتهانه له، فهو يقف منه في كثير من الأحيان موقفا مغايرا هو الهلع الشديد والكرهية، وهو يصف هذه المشاعر بأنها قديمة في نفسه

(١) ل ١ / ٣٦٩

(٢) لسطورة سيزف/ ص ٣٦

(٣) العصول والفايات/ ص ٣٦٠

(٤) ل ٢ / ١٠٢ وذات المعنى ل ٢ / ١٠٣

(٥) ل ٢ / ٤٦

قديما كرهت الموت، والله شاهدي وقد عشت حتى أسمح لي قرونتي

وأحسبه لو جاعني لأبيته ومن عند الله نصرتي، ومعونتي

ولم تأت هذه الكراهية، أو لم تتعمق وتتخذ صفة اللدوم، إلا من مواجهة الموت منمئلا في فقد البصر الذي حال بينه وبين الحياة، لذلك فكما كان اشتهاه الموت مدفوعا بالحرمان من الحياة، يكون الخوف من الموت مدفوعا بحب الحياة والرجاء فيها.

وصدقت هذا العيش في حبي له واغترني بخداعه، وكذابه

وجنبت من مرسي الحياة مغارة فالأن أخشي البت عند جذابه^(١)

فالمناطق الوحيد الذي يفهمه أبو العلاء، هو أنه لا بد أن يعيش^(٢) أولا قبل أن يموت، وهو لم يعيش بعد، ولم يدرك من الحياة شيئا، فكيف يجرو الموت عليه، لذلك تضطرب حياة أبي العلاء النفسية في انتظار هذا الأمل: أن يحيا: "كم أعز ونكت، أمل أنني أمكت، والمنية أخذه بالناصية أخذ الأسير بناصرية الأسير".^(٣) ويدرك أبو العلاء مثلما يدرك كل حي غيره، أن الموت نهاية كل طموح^(٤) فيتساءل لماذا لا نستمر عائشين في الحياة دون أن نبت؟^(٥) يقول:

ما أطيب العيش عند قوم لو أنه كان لا يزول^(٦)

فحب الحياة دافع لكراهية الموت، ووجود الموت قوة متسلطة حقيقية دافع للخوف من الحياة، والتظاهر بكراهيتها، فهي عيش مهدد بالزوال^(٧) ويقع أبو العلاء بين هذين المنطقتين، وهو ممتلئ بالرغبة في أن يشارك الأحياء بنصيب في تعمير الكون^(٨) فكان حب الحياة وحب الموت كلاهما حب للحياة، وكان الإقبال علي الموت والخوف منه كلاهما انصراف عن الحياة.

(١) ل/٢٠، ١٧٠، ١٧١.

(٢) ل/١٣١.

(٣) الفصول والفتايات/ص ٢٤٣.

(٤) السليق/ص ٢٤١.

(٥) السليق/ص ٤١.

(٦) ل/٢٤٣.

(٧) الفصول والفتايات/ص ٢٢٣.

(٨) العزلة والمجتمع/ص ١٨٠.

"قإن الشخص الذي ينصرف عن الموت لكي لا يستمتع بالحياة علي حير وجه، إنما ينصرف في الحقيقة عن الحياة أيضا، لأنه إذ يريد أن يتناسي الموت، إنما ينتهي (كما قال لا فل) إلي نسيان كل من الموت والحياة^(١)

ويصف أبو العلاء ببراعة ودقة متناهية، وقوعه بين هذه المتناقضات، أو هذه المناطق النفسية المتصادمة، مصورا في ذات الوقت إقباله علي الحياة بأنه إقبال "طائر" فرح، بادره الدهر بالعجز وهو لا يفني مبكرا، فكان حياته علي امتدادها لم تكن إلا موتا مختلف الألوان:

وأبك علي طائر-رماه فتي	لاه، فأوهي بفهره الكتفا
أو صادفته حباله تصبت	فظلت فيها كأنما نتفا
بكر يبغي المعاش مجتهدا	فقضي عند الشروق، أو نتفا
كانه في الحياة ما فرع الغصن	فقني عليه أو، هتفا ^(٢)

ولا نستطيع أن نغفل الدلالة التي يقصدها أبو العلاء من الصراع بين الفتي اللامي والحباله التي نصبت، وفعل القص لجناح الطائر، إن هذه الدراما لتصور ما يستشعره أبو العلاء من مأساوية المصير الإنساني، ومن أن الكائن البشري كائن مهان مبعثر من قبل قوي تتحكم فيه وتسيمه الخسف، ولا نستطيع تجنب ما تلمح إليه من معاني صراعه مع العماء.

ويتعد معني كل من الحياة والموت عند أبي العلاء، ليصل به الأمر إلي حد أن يري أن إثراط الحي في النهل من الحياة طريق إلي للموت^(٣)، وكأنه كان مشغول بتبرير تركه للحياة- أو علي الألق عجزه عن مجاهدة عجزه فيها- بأنه إنما كان يتهرب من للموت ويؤجله، حيث الهدم متزاوج مع البناء، والظما لصيق بالري، وللخوف الشديد من الموت إقبال عنيف علي الحياة، وهجر الحياة أيضا خوف شديد من الموت، فالحياة هي الحياة راء كل قصد. أو هي قصد أو حد وراء كل فعل ودلالة.

(١) مشكلة الإنسان/ ص ١٢٢

(٢) رسالة الهناء/ ص ٧٧، ٧٨

(٣) حديثه أبي العلاء/، ص ٨٤.

والعامل الثاني وراء خوف أبي العلاء من الموت وكراهيته له هو:

إحساسه بحتمية الموت، وطرادته، وكونه حقيقة مطلقة مستبدة بوجود الإنسان، قوة متسللة غادرة^(١)، فالموت مطارد لحوح لزج، مدرك له أينما كان:

وما نوب الأيام إلا كتائب تبث سرايا، أو جيوش تعباً^(٢)

والموت يواجه الإنسان في شعر المعري في سياق يبدو وكأنه سياق قتال، وكما المحنا فإن الدرع هنا تنتحي^(٣)، حيث لا تفيد المحارب بل حيث لا يفيد أي نوع من الحماية والهرب^(٤)، "الموت غيمة تطارد الإنسان، الحياة نفسها موت فوق الأرض، أو هي غيمة الموت" كما يقول أبو العلاء المعري: هذه حقائق، فماذا يفيد نسيانها أو تجاهلها، من هذا التساؤل تنطلق تجربة أبي العلاء.^(٥) ومن هذا التساؤل ينبع تخبطه بين إدراك معاني الحياة ومعاني الموت، وينبع تخبطه بين الانصراف عن الحياة، والموت، والإقبال على الحياة، والإقبال على الموت.

ويملك أبو العلاء خوف "هيسيري من الموت حين يظن إلي أن طعم الإنسان وكل ما يقيم أوده مشتملا على الموت، فحشا الأرض ذاتها موت، ولا عجب من ذلك، فالأرض تلدنا، وتقبرنا في ذات المكان والزمان المشتملة عليهما: "لا يأمن الحبط من السبط، فالمنية في كل نبات"^(٦).

والوعل الذي يفر من البرد إلي الدفاء، إنما يستشفى بالموت ويهرب إليه من حيث لا يدري^(٧) إن العالم كله في هذه الرؤية العلانية فريسة، ضأن لأبد من يوم لنبحه:

(١) ل/١/٢٢٢.

(٢) ل/١/٣٨.

(٣) ل/٢/٢٤٩ وذلت المعنى ل/٢/٢٠.

(٤) ل/١/٣٣٥، ل/١/٧٧.

(٥) مقدمة للشعر العربي/ ص ٦٠ / ٦١.

(٦) للفصول والفتايات/ ص ٢٧٠ للحبط: انتفاخ يصيب للضأن من أكل العشب، للمبسط: نوع من اللبث أو للشجر

(٧) رسالة الهناء/ ص ١٣١ / ١٣٢

وفي أبيات رائعة يصف أبو العلاء ملحمة الصراع الإنساني مع الموت، مستعرضاً كل الطرق الإنسانية التي ابتدعت لمقاومته، أو تجنبه أو حتى محاولة تأجيله، لكن الأبيات ترينا إنها طرق للهزيمة لا للنجاة حيث لا يشفع للإنسان هربه إلى الكواكب، ولا احتماؤه بمسام الليالي، أو بدفع المال، أو بحصانة العلم والمعرفة، فالليل حارس مهيمن علي كل الوجود:

لو أن سواد كيوان خضاب	يكفيك، والسهي قي الأذن حب
لما نجاك من غير الليالي	سناء فارع، وغني مرب
وما يحميك عز، إن تسبي	ولو أن الظلام عليك سب
أري جنح الدجى أوفي جناحا	ومات غرابه الجون الهرب
فما للنسر ليس يطير فيه	وعقربه المغيبة لا تحب
أجلو الشمس للرائي نهار	فقد شرقت، ومشرقها مضب
ولم يدفع ردي سقراط لفظ	ولا بقراط حام عنه طب

إن السواد "الليالي، الظلام، جنح الدجى، الشروق المضب" كانتات هيمنة الظلام في الأبيات السابقة، وتؤكد إلي حد كبير سيطرة الظلام المادي والمعنوي علي حياة أبو العلاء، الظلام بكل ألوانه، مما دفعه إلي الخوف من هذا الظلام، والالتجاء إليه في شعور مركب يفسر لنا كون العزلة والموت عالمين دافنين للمعري في كثير من الأحيان.

وكما يحلو لأبي العلاء أن يصور نفسه طائرا رمي بالعجز، رصيد بالحبال، يحلو له أيضا في مواجهة قيوده الميتافيزيقية أن يصور نفسه وعلا ثابا لا يفيد الاعتصام من الموت^(٢) والقضاء المحتم، أو يصور نفسه سلكا ضئيلا لا يشفع له تضاوله قبالة الموت^(٣)

والصورتان متناقضتان، فإذا كان الوعل الشاب يشير إلي القوة والمنفعة والحيوية، فإن السلك المتضائل يشير إلي انعكس من ذلك، وكان أبا العلاء في تشبيه نفسه بهما- كل علي حدة يريد أن يبت شماتته في كل قوى ينال

(١) ل/١ ص ٢٦٢

(٢) ل/١ ص ٨٩

(٣) ل/٢ ص ١٥٥

منه الموت ويعجزه، أنه سلوك التعويض النفسي غير المباشر.

والموت في شعر أبي العلاء- أو هو كذلك بالفعل- لا تجدي أمامه الرقي، ولا يشفع عنده بطول العمر، بل إن طول العمر علي امتداده غير مجد، لأنه مختوم بالموت، مشتمل علي أعظم قدر من سكراته:

رقتني الرائيات، وحم يومي فغادرني كأنني مارقيت
هييني عشت عمر النسر فيها وكان الموت آخر ما لقيت^(١).

ويصور المعري اقتدار الموت علي الإنسان في صورة قافلة ثكلي، مرغمة علي تجرع كزوسه، ويصور الموت عاشقا صبا في الحاحه وصبره^(٢)، إنها طردية غاية في الكآبة.

مرحلة ما بعد الموت وما قبل البعث:

ولنقل: مرحلة القبر، وهي من العوامل الرئيسية وراء خوف أبي العلاء من الموت، فغوضها وحده كان كافيا لإثارة فزعه ووساوسه واضطرابه:

تخالفت الأشياء في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها^(٣)

ومنطلق هذا الفزع إبراك أبي العلاء عدم اختلاف الموت عن حياته الضيقة.

هي النفس تهوي الرحب في كل منزل فكيف بها إن ضاق في الأرض قبرها
ولآخر عهد القوم بي، يوم تتطوي طي جرور الورد يكره زبرها
فهل يرتجي خضر للملابس طاعن وقد مزقت في باطن الأرض غيرها

إن أبا العلاء ينظر إلي الموت بعين سجونه أو محابسه ينظر إليه بعين عجزه وعزلته ووحدته، فالموت تيد لا حرية، وحين يهال التراب علي المانت يصبح طوع ما يحدث له، فلا يملك له ردا، يخضى المعري من الموت لأنه عجز أيضا:

يهال التراب علي من ثوي فأه من النبا الهائل

(١) ل/١ ص ١٥٩

(٢) ل/١ ص ٥٦

(٣) ل/١ ص ٣٠٤

وكم قيد الدهر من دالف

وقد كان السابق الجائل^(١)

كيف إذن يكون اقتدار الموت علي العاجز الضعيف؟ هذا هو السؤال
الضمني في الأبيات، وتلك قضية أبي العلاء الأساسية في كل شئ: عجزه
المواجه لكل الأشياء، ضعفه قبالة كل القوى.

ونحن إذا نظرنا إلي مخاوف أبي العلاء من مرحلة القبر، وجنناها لا
تختلف عن مخاوف ضمير كل إنسان منا، الفارق بين الجميع هو مدى قوة هذه
المخاوف، أما أبو العلاء فيراها في صورة مكثفة مجسدة لحوح، يري الموت
استباحة لكيان الإنسان، نزعا لخصوصيته، سلبا لقيمته:

من للدفين بأن يفرج لحده فيقوم منه، وهو أشعث أغبر^(٢)

والموت يهيل التراب علي أنف الإنسان، نانلا من شممه، وعزته: ^(٣)

والموت يسلب ما في الأنف من شمم تحت التراب، وما في الحذ من صعر

والأرض تأكل أبنائها، بعد أن كانت رحم تخليقهم ونمانهم^(٤) الأرض لا
تفرق في افتراسها بين الليوث والضأن، مما يفقد أبا العلاء الإحساس بالمنطق
والأمان والجدوى، في الحياة والموت معا:

وما تشعر القبراء ماذا تجنه أعظم ضان، أم عظام ليوث^(٥)

فالأرض هي الحياة الغادرة الخؤون، التي تبدل عشاقها، الأرض تبدل
ساكنيها بعد التهامهم^(٦). وفي المقارنة المروعة بين هيئة الإنسان في الحياة وهيئته أو
أمله بعد الموت، تكون الحياة هي الخضاب والزينة واللون، ويكون الموت للوحشة والفقر
والجذب

لا أعادي مفارقي بصيب وأخلي والقتل صبيبة^(٧)

ومتلما كان العجز ركيزة وجع أبي العلاء من الحياة، يكون البلي ركيزة

(١) ل ١ / ص ٢٠٤ للجرور البئر العميقة زبرها طيها

(٢) ل ٢ / ص ٢٥٣

(٣) حديثه أبي العلاء

(٤) ل ١ / ص ١٨٥

(٥) ل ١ / ص ١٨٨

(٦) ل ٢ / ص ١٣

(٧) ل ١ / ص ١٠٦

مخاوفه من الموت، ومنظاقه الوحيد في الحكم عليه

تلاقى تقري عن فراق تنمه
مأق، وتكسير الصحانح في الجمع
وشكلين ما بين الأثافي واحد
وأخر موف من أراك علي فرح^(١)

وصورة الرماد هذه لا يصل إليها الكائن البشري إلا بعد أن يمر بـ
"مرحلة البلبي" أو إذلال التكوين البشري، وأبو العلاء لم تمضه فكرة البلبي
والفناء بنفس القدر الذي أمضت به البشر وعذبت خيالاتهم^(٢) بل استشعرها
بحدة تفوق مثيلاتها عند كثير منهم، لأنه لمس البلبي في فقد عينه، فهو فزع علي
القياس فالجسد "أر هقته النفس بعد رحلة في الحياة مليئة بالمشقة والألم، وأن له
أن يؤوب بعد انعكاه، وأن يحتضنه مئواه في حرص صارم يبلغ الاستبداد^(٣)

إن تفكير أبي العلاء في الموت من خلال "فكرة البلبي" تفكير فزع من
التبديد والغموض والإشلاء والتبعثر^(٤) يقول "لو غبرت ألف حقبة، ما ورد علي
منهم كتاب، و لا رسول، وعندني خبر خيرني المعقول، أن جلود القوم تمزقت،
واللحوم بليت، وتهالكت، وصارت الأعظم رماما"^(٥).

لذلك لفتت عادة إحراق الهنود جثث موتاهم نظر أبي العلاء، بل لفتت إليها
وجدانه الخائف، ورأها بعين الشاعر المغترب- بعيدا عن العقيدة الدينية- نجاة من
البلبي وحفظا للمانت من لفترس حيوان الطريق، وعبث للخلاء لو عبث القبر:

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم
لن حرقوه فما يخشون من ضبع
والنار أطيّب من كافور ميتنا
وذاك أروح من طول التباريح
يسري عليه ولا خفي وتطريح
غبا وأذهب للنكراء والريح^(٦)

ويخشي أبو العلاء من: بلي القبر "إلي حد أنه بفضل عليه فعل السباع

(١) ل٢/ص ٩٣.

(٢) ق٣/ص ١٣٣٥، ١٣٣٦.

(٣) د. صالح الميضي في الرثاء وبيان مالک بن الربيع. مجلة كلية الأدب بالإسكندرية/ المجلد
١٩٨٧/٣٥م الدار الأنطلمية/ ص ٤٢.

(٤) قضايا العصر/ ص ١٨٧ يتصرف.

(٥) ق٢/ص ٩١٦ ٩٢٥ ٩٢٧، وكذلك في الفصول والفتايات/ ص ٢٧٨.

(٦) ل١/٢٢١.

الضاري بالجثة^(١) ويجعله عاملاً من عوامل اغتراب المانت:

فلا يمس فخارا من الفخر عائد
إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة
فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخري، وما تدري
فواها له بعد البلي يتغرب^(٢)

وفي طرحه الديني لقضية للموت، يعلب علي أبي العلاء أن يتناولها
تناول المسلم الواثق بالله وعد له، ورحمته وعبوه واقتداره، مما يصيبغ نظرته
إلى قضية الثواب والعقاب- في هذا السياق الديني- بصبغة إسلامية مطمئنة^(٣)
لا بأي صبغة غيرها.. لكن علي الرغم من ذلك كله لا يمتنع أبو العلاء عن
وصف خوفه من البلي حتى في هذا السياق:

عودي، يخاف من الإحراق صاحبه
إن قال ربي لأجساد البلي: عودي^(٤)

ويتساءل عن مصيره، تساؤل الرافض لأي لون منه لا يتسوق مع ضعفه
أو لا يعوض له عناؤه في الحياة:

بعلم الكهي، يوجد للضعف شيمتي
فأست مطيقا للغدو ولا المسرى
أصبح في الدنيا، كما هو عالم
وأنخل ناراً مثل قيصر، أو كسرى
إذا ركب نالت به الشاؤ ناقة
فما اينقي إلا الظوالم والحسرى^(٥)

وقد يرتدي تسبيحه لله- في بعض الأحيان- رداء البكاء والاستغاثة من
بشاعة الموت وإهانتة للجسد البشري^(٦) وتغريبه له.

أما الروح فحين يأتي أبو العلاء إلي مجال ذكرها فإنه يعجب من

(١) ل/١/٢٩٧.

(٢) ل/١/٧٢.

(٣) ل/٢/١٠٣.

(٤) ل/١/٢٧٦.

(٥) ل/١/٦٨، ٦٩ للشاؤ للغاية

(٦) حديقة أبي العلاء/ ص ٨٨.

للظالم من في مشيته عرج

أمرها^(١) ويراه غامضاً، لكنه لا يستبعد أن تكون مقيمة في العذاب شأنها شأن
الجسد، بما يتفق مع طبيعتها:

أن يصحب الروح عقلي بعد مظنها الموت عني، فأجدر أن تري عجباً
وأن مضت في الهوام الرحب، هالكة هلاك جسمي في تربتي، فواشجبا

وهكذا يكون الموت في كل مراحلها تأكيداً حتمياً لاتعدام حرية الإنسان،
وضالمة اختياره ووجوده: " الموت هو الواقع الوحيد، أما بعد الموت، فالأمر
يكون لسوا، فلست حتى تلك حراً في إدامة وإيقاء نفسي، وإنما أنا عبد، وفوق
أي شيء آخر عبد بدون أمل في الثورة الأبدية، بدون أي لجوء الاحتقار، ومن
الذي يستطيع أن يبقى عبداً بدون ثورة، وبدون احتقار، وأية حرية يمكن أن
تكون هنالك بالمعنى الآثم بدون تأكيد علي أبديتها؟^(٢)

نوع آخر من الاغتراب يلتصق بالموت، هو الاغتراب عن (الحياة -
الوطن) تلك الحياة التي طأماً اثنتكي منها المغترب، وهرع إلي الموت مدعياً
السأم منها، هو الآن - أي أبا العلاء- يري انفصاله عنها بالموت: أغرب الغربية
، يقول : " فارحمني يا رب، إذا أدرجت، ثم أخرجت من الوطن إلي أضيق
عطن، وخفت الليل، واستراح المعطل من التعليل، فالحرب الحرب، وقد
أكرمت ووقيت، ثم أسلمت فألقيت، وزوراه بعيدة المزار، مورد من يعرب
ونزار، وسكن التربة أغرب الغربية، أن قضت الإعراب من أهل التراب، وغدر
بهم أهل اللوفاء^(٣). فالمانت غريب وأن كانت حياته قبل ذلك كيدا وعننا:

حملوه بعد مجادل وأسره حمل الغريب، فحط في بيت ردم
ما زال في تعب وهم دائم فلعله عمن الأداة بأن عمن^(٤)

ومادام للموت أغرب للخربة لأنه رحيل عن الحياة التي تمثل هنا
الانتماء والوطن فإن المانتك بالطبع، لا بد أن يعاني العذاب من فقد الاحبة، وهذا
لا يتناقض مع اغتراب أبي للعلاء الاجتماعي، الذي كان في أعلي درجات

(١) السابق/ ص ٧٨ .

(٢) ل ٩٥ / ١ .

(٣) أسطورة سيزيف/ ص ٦٧ .

(٤) الفصول والتعليق/ ص ٢٧ .

حدثه دليل الاحتياج إلي الآخر، ودليل لهفة إلي الانتماء إليه، لولا مغايرة هذا الآخر للآخر... (١)

أما في حديث الموت فإن هذا (الآخر)، يمثل الصلة، الدفء، والإغاثة من غوائل الموت: "أين أكون بعد البيت المسكون، أحل بالصعيد، لا أشعر بمجمع ولا عيد، وذلك المنزل المنفرد الغريب، والله مؤنس المستوحشين." (٢) أن لقاء المائت للموت منفردا اغتراب عميق:

"لقي وحدي وجعي، لا يموت أحد معي، استغفرك من المويقات" (٣)

ويكرر أبو العلاء لفظ الوحدة في هذا السياق كثيرا:

لو أني في عداد الرمل صحبي لأودعت الثرى وتركت وحدي (٤)

وهذا كله يؤكد لنا أن أبا العلاء لم يركن إلي العزلة طواعية ولتقدار، بل لجأ إليها متعبا مرهقا مكرها، مطرودا من الحياة، لم يلجأ عن قوة، بل عن عجز كذلك لم يركن إلي الموت إلا تحت ذات اللوطة، فأبو العلاء الذي بثنا في الفصل السابق - في سياق وصفه لاغترابه الاجتماعي - بثنا رغبته أن يعيش في الحياة وحيدا كالمتراب في دائرته العروضية، ببثنا هنا خوفه من وجوده علي هذه الشاكلة بعد الموت (٥) ويفزعنا أن القبور لا تئس ببعضها (٦) وأن ليس للمائت صديق. (٧)

العامل الخامس وراء خوف أبي العلاء من الموت هو:

مطاردة الموت للإنسان وحده تتمتع الجوامد بخلود نسبي في رأي المعري قياسا إلى الإنسان .

أن ربة الحصن المشيد بتيما ء تولي وخلقت تيماء (٨)

(١) ل/٢ / ٣٣١ .

(٢) الفصول والغايات/ ص ١٦٢ .

(٣) الفصول والغايات / ص ١٤٨

(٤) ل/١ / ص ٢٧٨

(٥) الفصول والغايات/ ص ٢٣١

(٦) السابق/ ص ٦ .

(٧) السابق / ص ١٢٩

(٨) ل/١ / ٤٩ الحصن هو الأبلق للفرد بين الحجاز والشام ربه هو السمور آل بن عادي

اليهودي تيماء بليد في اطراف الشام بين الشام ووا- ي القرى من انحار

الإنسان ذلك الفرس القوي الذي ملأ الأرض ركضا وتجوّالا، حين مات ابتلعته ذات الأرض غير عابئة، ولا يعقل أن تكون قد استشعرت موته، وأست له: قرمتنا الأيام، هل رثت النحام لما ثوى بها قرماء^(١)

الإنسان علي الأرض ليس إلا (النحام): فرس سليك بن السلكة، والأرض في عمومها أو الكون علي إطلاقه ليس إلا قرماء، تلك القرية التي مات بها ومن واقع هذا التأمل يري أبو العلاء الطلل رؤية مبتكرة، حيث يكون الطلل هو الإنسان، وليس المنزل الدارس، أو الديار المتهممة، الإنسان في رؤية أبي العلاء الطللية هو المعالم للبائد في الكون، تاركا وراءه جوامدا من الطبيعة باقية رغم أنها لا تحس، عفية رغم أنها لا تتألم:

مضي الواقف الكندي والسقط غابر وصاحت ديار الحي ابن ليبيد
تولي ابن حجر لا يعود لشانه وطالت ليال والمعالم بيد^(٢)

تزول أجيال من الناس فوق هذه الأرض، فينتقلون إلي باطنها، بينما تظل الأرض باقية لا تنزع أوثادها^(٣) أن الاغتراب هنا هو الإحساس بالشئنية والنقزم قبالة الأشياء التي لا تتمتع بمكانة الإنسان علي الأرض.

وأرض لا تحس بمن عليها ولا يبقي بها منهم غريب^(٤)

أن مفردات الطبيعة كلها، تواجه الإنسان بهذا العداء والصلف، وتتنظر إليه بوصفه كائنا محدودا متاهيا ضعيفا، ونظرتها ابدأ متعالية منفصلة:

لا يحمل الليل هم السانرين به ولا يجانب حزنا وهو مرقود^(٥)

الاغتراب هنا هو اغتراب الإنسان الكلي عن الوجود، هو انفصاله عن كل مفردات الكون حية وجامدة، هو خزفية الإنسان وتهشمه، هو سطوع كل مفردات الطبيعة في الصحة والدوام، فها هي الشمس ساطعة البصر لا تعاني فقدا أو تشويها لعينها، بينما تنوء عين الإنسان بالعجز، والمحدودية في الحياة

(١) ل ١/ ٤٩ النحام ك فرس سليك بن السلكة قرماء قرية بوادي قرقرى ناليمامة
(٢) ل ١/ ٢٢٣ للولتف للكندي أراد به أمرئ للقيس، ليبيد هو الشاعر ابن ربيعة، عث ١٦٠
عاما

(٣) ل ١/ ص ٢٣٧

(٤) ل ١/ ص ٨٣

(٥) ل ١/ ص ١٤١

والموت معا، ولا يغيب عنا أن المقارنة العلانية هنا بين هذين الطرفين مقارنة منطلقاً من ذات المعري الموجوعة بفقد البصر:

طفنت عيون الناظرين، وأشرقت عين الغزاة، ما بها عوار^(١)

وليست الشمس فقط، بل دائرة الفلك كلها تتمتع بالسؤدد والقوة، فهل نحن قابلون للموت لسوء خلق فينا، هل نتلف لفسادنا؟ أنها تساؤلات تأمل المعري:

سبحان ربك، هل يزول كغيره شرف النجوم، وسؤدد الأقمار

فكان من خلق النفوس رأي لها ظلماً، فعاقبها بسوء دمار^(٢)

ويحسد أبو العلاء الطير في الفضاء، حيث يرتع لا يعاني العيوب^(٣) وكذا الوحش التي لا تحمل إلا هم غذائها، وغذاؤها ملقي في التربة، أن كل الكوائن الحية تتمتع بما ينقص الإنسان.

وفي مقارنة سريعة بين الإنسان والنبت، يقف أبو العلاء على حقيقة معني "تنامي الإنسان" حيث يصور نفسه زارعا يستطيل نباته مع الزمان، بينما يلحقه هو العطب والموت:

وأشهد أنني غاو جهول وأن بالغت في بحث، ودرس

يجاد نري، ولجمل فيه غرسا فيفقد ساعدي، ويقوم غرسي^(٤)

وكانه يبرر لنا إيمانه باللاجدوى، والركانه إلي اللافعل.

أن الزمان في عين أبي العلاء بكل كسواه، يقف مواجهها الضعف الإنساني... وحين يطرح الزمان الإنسان أرضاً لا يتوقف، بل يكمل دورته في لا مبالاة مستقرة:

نزول كما زال أجدادنا ويبقى للزمان علي ما نري

نهار يضي، وليل يجي ونجم يغور، ونجم يري^(١)

(١) ل/١ ص ٣٣٢. الغزاة: الشمس

(٢) ل/١ ص ٤١٤.

(٣) ل/١ ص ١٤٤.

(٤) ل/٢ ص ٤٢، ٤٣.

وحين يبلغ التطرف النفسي مداه يري أبو العلاء الإنسان أقل من الجوامد ذاتاً ، ويقف أمام سوار الكاعب، واصفاً قوته وصموده- وهو الجامد الذي لا يحس- قبالة تداعي الكائن البشري:

" يا سوار الكاعب: كم رأيت ذهبك من عين، متي عهدك معدتك، لقد تداولتكم الأمم جيلاً بعد جيل، تضرب تارة نناير، ومرة حلية سيف، وربما اتخذت منك الأتية: لقد بقيت، وفني مدخروك يا ضاحكا لتبكين، ويا منزلاً لتوحشن، ويا شمل: أنك لرهين بشتات^(١).

إن قابلية الإنسان للتلف، وهو الكائن الذي متعه الله بالعقل والإرادة وذكاء الروح، والقدرة علي تعمير الحياة، هذه القابلية مدخل للاغتراب عن الوجود، ومدخل للتساؤل الموجع:^(٢)

ما موقع الإنسان في الكون؟ وهل يفضلهُ الجماد الغيبي الذي لا خصوصية له ولا فعل؟

نحن أفضل أم أشياء جامدة أضحت سواء لديها العين والأثر

وإجابة المغترب لا بد أن تكون علي هذه الشاكلة:

ومن الفضيلة للجوامد أنها لا حسن يتبعها، ولا أوطار^(٤)

فإذا كان الاغتراب هو الانفصال عن الحياة، هو العزلة الخاصة، هو الإحساس بدفع الاغتراب وبكونه بيتاً خاصاً، إذا كان الاغتراب هو معاملة المواقف والأشياء والمعاني والأشخاص من (الخارج) لا من (الداخل) إذا كان هذا هو الاغتراب، فإنه ذلت المعني في البيت السابق، هو حياة الجوامد... أن أبا العلاء حين يغبط الجوامد في حياتها الساكنة إنما يمدح الاغتراب الذي يفترض انعدام الحس والإدراك، وهو يمدح الموت أيضاً ولكن أي موت، أنه فقط الموت دون ألم أو معاناة أو بلي.

أبو العلاء يضع الحياة كلها في مواجهة الإنسان، ويخلق من الوجود كله عدوا للإنسان، لذلك فهذا الأخير في نظره مغترب، بل هو في مطلق

(١) ل/١ ص ٦٧ .

(٢) حديقة لبي للعلاء/ ص ٥٣ .

(٣) ل/١ ص ٣١٢

(٤) ل/١ ص ٣٢٦

الاغتراب في هذا الوجود، وهذا المعنى ركيزة من ركائزه في تم الحياة، وتظاهرة بالانصراف عنها، حيث لن تلتفت هذه الحياة وراءها إذا تركها الإنسان، وسقط في الطريق بلا أنفاس، لن تتغير، لن تأسف أبداً:

أصاح، أتدرك كيف بعدك حالها أجل مثل ما شاهدته بعد غيركاً (١)

إن الحياة هنا هي الأنتى بمعنى من المعاني وهذا ما اشرنا إليه سابقاً فسرمدية الحركة هي هي؛ وازدهار الكون هو هو، كذلك فإن فناء الإنسان هو هو.

نمضي، ونترك البلاد عريضة والصبح أنور، والنجوم زواهرا

عش مايدالك، لن ترى إلا مدى يطوى، كعادته، ودهرا داهرا (٢)

" لم يكن غريباً أن تحدث مواجهة بين هذين الزمانين في فكر أبي العلاء: ولم يكن في وسع أبي العلاء أن يخفي هذه المواجهة التي كانت تصطرع في داخله بين زمانه، الذي لا بد له من انقضاء، وبين بقاء الحياة في استمرارية لا تنتهي" (٣).

ولأنه مغترب يظن أن معاناته لا يعانيتها الكون، فيتمنى الهلاك للكون كله معه ويقول مع الوجوديين " بناء علي صلاحيتي التي لا يجادل فيها أحد، باعتباري المدعي والمدعي عليه، القاضي والمتهم، فأنتي أحكم علي تلك الطبيعة التي جاءت بي بكل قمة إلي الكينونة لكي أعاني واتعذب، أحكم عليها بالإعدام معي" (٤).

إن أبا العلاء حين نظر إلي الحياة والموت، رأي اغترابه منهما معا، وفيهما معا لان معنيهما غامض ناقص مشوه، أن اغترابه واقع بين حب الحياة، ورفضها له، وطلبه للموت وإنكاره له، فهو لم يستسلم- أو لم يستطع أن يستسلم- لأي من معني الحياة أو معني الموت، فوقع بين المنطقتين غير ممسك بشئ في يديه إلا الفراغ:

(١) ل٢/ص ١٥٤ .

(٢) ل١/ص ٣٦٧ .

(٣) تضايا العصر/ ص ٢٠٦، ٢٠٧ .

(٤) اسطورة سيريف/ ص ١٢٤ .

غدوت ولي إلي الدنيا ركون

لقد طال الزمان علي حتى

سيأتي الموت أغفل ما أكون^(١)

فلا أغرر إذا أجلي خطاني

فحياة أبي العلاء التي قامت علي الإحساس بالعجز والتشوه والنقص، حياة مرتكزة علي كل هؤلاء، حياة لا تنتمي إلي الإحساس بالحياة، لأن " الوجود الفاجع للشخصية في هذا العالم هو في أساسه نتيجة لارتباطه الوثيق بالموت"^(٢).

كانت حياة المعزى بحثا عن الأسباب المنطقية لوجوده في الحياة علي هذه الشاكلة، وهذه الصورة من العجز والعناء والمحدودية، وقد أسبغ مأساته هذه علي البشرية كلها، فرأي حياة الإنسان كلها بحثا عن الحرية: حرية التواجد، حرية الذهاب، ورفضاً للتشويخ والتأهي " والإنسان يؤكد حرمة برفض الوضع الإنساني. وكرامة للوضع الإنساني تكمن في الاتهام الذي يوجهه ضد العالم"^(٣) هكذا يشعر الوجوديون والمعري الذي يحمل بعض مساهم الفكرية.

وأبو العلاء بحكم عجزه لم يرفض القيد المتمثل في الحياة والموت- لم يرفضه رفضاً إيجابياً فعلاً خالفاً- بل كان رفضه رفض شاعر مغترب يبت شجونه، ويبرر عزله عن الوجود كله بأنه مانت في الحياة، مانت في الموت، وأنه لم يستطع الإغضاء عن هذا المعني فيندمج في حياة خالصة، فقد جرب معاني الموت في عجزه، ومن ثم ظل حياته كلها يراقبه ويشكوه:

وإن لم تر الصقر الحمامة دهرها فمن شيم الورق الحذار من الصقر^(٤)

نتائج الاغتراب الشعرية في شعر أبي العلاء:

(١) ل/٢/ص ٣٤٦.

(٢) للعزلة والمجتمع/ص ١٧٦.

(٣) نزال كامل / لنديريه مالرو. شاعر العزلة والنضال دلو للمعارف بمصر ١٩٧١م/ص

٤٦

(٤) ل/١/ص ٣٧٧

اصطدم أبو العلاء بالشر- في اعتقاده- أول ما اصطدم في هذه الحياة ممثلاً في تلك العاهة التي أسلمت قياده لحياة نفسية مشوهة ناقصة، قائمة علي الانفصال للمحض، فإن التشوه - المادي- خلق له تشوها نفسياً معادلاً أو مساوياً له، لذا لم يعالج أبو العلاء وقضاياها، ولم ينظر إلي محتته في الوجود نظرة فكرية بحثة، ولم ينتم إلا لعجزه، وإحساسه العميق بالشلل، فعالج أموره في إطار انفعال فكري منضو تحت كل انفعال يمر بمن عطلت حيويته، وقتل في ارتياد الحياة" ولقد يولد أحدهم من أصل شريف، ثم تأتي أحداث الحياة، فتعطل من قواه، وتذهب بأمنه، وما كان ينبغي من مجد، كما قطعت الثورة الفرنسية يشاتويريان، فإذا به حزين (يتأعب الحياة) بدلا من أن يحياها، وهذا النوع من الاتجاه أقرب إلي الحزن منه إلي التشاؤم. ومن الشعراء أمثال الشاعر الإيطالي " ليوباردي" من تقعد به أفات للجسد عن للمغامرة في الحياة كما يريد، فإذا به يصبح: " لأنه ليس إلا جزعا نخرا يحس ويتألم"، ومنهم أمثال أبي العلاء ممن نزل بهم محنة لا فرار منها فأصابهم ما يشبه اليأس من الحياة، فتبرموا بها في ضرب من الاستهتار العقلي الذي يلهو بكل فكرة، وكل عقيدة، وكل عاطفة، لأن اليأس لا يستطيع غير ذلك".^(١) وكل هذه النماذج، وغيرها تندرج تحت مقولة واحدة هي:

" الحياة المعطلة" التي توقع الإنسان بين متناقضين : العجز المحيط به، والقدرة المستحيلة التي يهفو إليها، وهذان المتناقضان يعلوان ليتجاوزا بالشخص- أحيانا- حياته الفردية، ومحتته الشخصية إلي أفاق محنة الإنسان في عموه في كل زمان ومكان، فيجد العاجز أو المعطل" أن سر شقاء الإنسان الذي يجعله أشد الكائنات عذابا هو أن له فدما في المتناهي، وقدا أخرى في اللامتناهي، وأنه قد صار هكذا ممزقا تتجانبه ليس فقد أربعة خيول كما كان يحدث في العهود الرهيبة الغابرة، بل عالمان متناقضان".^(٢)

ومن ثم يجد الاغتراب، بيئة خصبة للنمو والتفرع بكل ألوانه ومظاهره

(١) محمد مندور في الميزان الجديد ١٤٣
(٢) عبد الرحمن بدوي للعبقرية والموت ص ١٨٠

ونتائج الشعورية.

وفي شعر أبي العلاء نجد مشاعرا بعينها وثيقة الارتباط بالاغتراب، لأنها ناتجة عنه" فهو بوجه عام في الحالة التي يطلق عليها الانجليزي " spleen " والتي تملك كل الشعراء البرناسيين والرمزيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا خصوصا، وقد تغني بها بودلير فأجاد في مقطوعات صده تحمل هذا الاسم الذي يجمع بين الملل والفراغ والقلق والتوثب العظيم والشعور بالعجز الصارخ والضعف الضارع، مع رقة الإحساس بالضيق، وإرهاق الشعور بكل الخلجات الدقيقة اللطيفة".^(١)

ولم تكن مشاعر أبي العلاء الناتجة عن الاغتراب إلا توجهات عاطفية الكون، نابعة من معاناة الذات، لا من الفكر المجرد الخالي من الصراع والتجربة.

ونتائج الاغتراب الشعورية في شعر أبي العلاء أعمق من أن ندرجها تحت مقولة اليأس العقلي والعاطفي^(٢) أو التشاؤم والاكتئاب^(٣) لأن هذه النتائج الشعورية أدت به لفرط قوتها إلي أن يرفض الحياة^(٤)، بل إلي أن يرفض فكرة الوجود ذاته علي الإطلاق.

وأول هذه النتائج الشعورية للاغتراب: إنكار العلة الغائية للوجود:

نظر أبو العلاء المعري إلي محنته في الحياة، تأمل علتها وحكمتها، ومدى أهميتها بالنسبة للكون، نظر إلي الحياة حوله وتساءل عن المنطق الذي يقف وراء الشرور التي تلم بالناس والشرور التي تخرج منهم، والتخبط الذي يذم خطوات الإنسان في كل شئ يفعله، والأنصبة المتفاوتة لكل شخص في الحياة... نظر إلي التاريخ البشري فوجد ذات الاضطراب والتوتر، والاختلال في موازين الأخذ والعطاء.. ذات التباين الصارخ بين القدرات والحظوظ...، نظر نظرة شمولية إلي الوجود كله وجده يبدأ من لا شئ وينتهي إلي لا شئ، وبين اللاشئيين حياة غير ممنطقه قائمة علي المصادفات البحتة والأنصبة غير

(١) عبد الرحمن بدوي. العبقرية والموت / ص ١١٤

(٢) في الميزان الجديد / ص ١٤٣

(٣) د. علي لدهم. بين للفلسفة والأدب

(٤) السابق / ص ١٨

المتكافئة التي لا يحكمها الجهد، ولا يتحكم فيها العقل، وجد كفاحا إنسانيا متواصلا معنبا دون مبرر.. فخرج من هذا كله بأن الوجود لا يخضع لأي تدبير معلل، أو أية علة حكيمة... وهو يجهر بهذا تارة،- إذا غلبه الانفعال،- ويستكره في تحفظ تارة أخرى لأنه يعلم اصطدامه بالمنطقة الدينية، يعلم تناقضة مع ما أقر به هو من استسلام لله وإقرار بحكمته، وعلمه، وقدرته...

لولا بدائع دلت أن خالقنا ادري وأحكم قلنا خلقنا لهم^(١)

ولا نعتقد أن قوله "لولا" أننا شينا إذ يهيمن قوله "خلقنا لهم" علي كل شعره وتبدو له فكرة العلة الغائبة للوجود هازة بالعقل الإنساني، تبدو مستحيلا كالنعناء، كطائر "الكركدن" شينا يلوح للقافلة البشرية كالسراب يحثها علي المسيرة، بينما يسوقها إلي الموت الذي تحاول هي تجاوزه والعلو عليه، فتبدو كالخيل التي تكافح لجامها وإذا بمحاولات القضم والتمزيق تقال منها وتشوه نواجذها يقول المعري :

خلقنا لشيء غير باد ، وإتما نعيش قليلا، ثم يدركنا الهلك

كخيل صيام تألك الدهر لجمها بغيظ فقد أدمي نواجذها الفلك

ولا بد أن أبا العلاء كان يغيظ كل من ينتمي إلي فكر أو مذهب، يري في الموت علة معقولة، ولا بد أنه كان يضبط كل مسلم لسلم راحتيه إلي ما ارتضته السماء وما نهت عنه، وأثر السكينة والسلام في غير حاجة إلي التمرد والتساؤل المودى إلي التهلكة، ولا بد أنه كان كذلك لأنه لم يكن أيا منهما، بل كان الموت علي وجه الخصوص دليله القوي علي تعدد العلة الغائبة للوجود وانتقاد الحياة للمعني... ولا يعني هذا أننا ننفي عنه الإيمان بل ننفي التصالح مع العجز والركون إلي الهدوء.^(٢)

وإيمان أبي العلاء بانعدام العلة الغائبة للوجود كان مدخلة للقول بالعمية، فراها جوهر ا في فسح الوجود، وأساسا في بنيانه.

والعمية معني مقابل للحياة أو الوجود، هي الشغل الشاغل للامنمي الذي يميل "إلي التعبير عن نفسه بمصطلحات وجودية، ولا يهيمه التمييز بين

(١) ل٢/ص ٢٧٥

(٢) ل٢/ص ١٤٦

الروح والجسد، أو الإنسان والطبيعة، ذلك أن مثل هذه الأفكار تنتج تفكيراً دينياً، وفلسفة، في حين أنه يرفضهما معاً، أن التمييز الوحيد الذي يهمله، هو بين الوجود والعدم^(١) لكننا نعتقد أن هذا القول ليس سليماً علي إطلاقه فيما يخص أبا العلاء، فميل أبي العلاء إلي العدمية لا يطعن في عقيدته^(٢) لكنه في ذات الوقت ليس ميلاً قابلاً لأن يزول إلي زهد، أو أن يظن أنه من قبيل الزهد^(٣) فهو في الواقع نتيجة من نتائج الاغتراب وثيقة الصلة بفقد البصر، وهو نتيجة شعورية للاغتراب تؤكد لنا أن فقد البصر كان في حجم الموت بالنسبة لأبي العلاء، وأنه محنة كافية من وجهة نظره لأن يقول بلا معنوية الحياة، ولا جدوى التفاعل مع الحياة، أو في الحياة.

أن قوله بالعدمية ترحيب بالموت، الموت للذات العاجزة، الموت للحياة التي بخلت عليه بالحياة، الموت للأحياء الذين لم يشبههم يوماً في استواء حياتهم، الموت للأمال التي لم يذوقها قط، الموت للألام التي شوهدت جبينه وأمنت كبرياءه الإنساني، الموت للوجود كله الذي استعصى عليه بأسراره وحقيقته، وتبدي له خالياً من الروح والحكمة والعلّة.

القول بالعدمية يعكس قلق الحي في مواجهة الموت والفناء، وهو أدل دليل - رغم ذلك - علي تمسك أبي العلاء بالحياة، لأن القول بالعدمية محاولة من فكره المنفعل أن يلغي من ذاته فكرة الوجود بأسره^(٤) ولا بد من التمييز بين القلق والخوف، وقد قام كيركجورد بهذا خير قيام، فهو يقول: "أما القلق فشعور آخر نعانيه، لا في وجه الأخطار اليومية... وإنما في مواجهته سر الوجود والعدم، وعندما نقف إزاء هوة المتعالي وحيال المجهول، فالموت لا يثير شعور الخوف فحسب من حادثة تقع دائماً في عالم كل يوم، وإنما يثير القلق في مواجهة المتعالي... الخوف يرتبط بالهم، وبالخشية من الألم، فضربات القدر، والخوف يفشل في أن يصيب أعيننا ذلك العالم المتعالي الاسمي، فهو مرتبط بعالم أنني ومستوي أنني، وهو مقيد بما هو تجريبي، أما القلق فيقع علي شفا المتعالي، حين يواجه الإنسان الأبدية، وحين يلتقي هو والمصير وجهاً لوجه"^(٤).

(١) ٢/ص ٢٧٥

(٢) كولن ولسون/ اللامنتمي /ص ٢٧

(٣) عقيدة لبي للعلاء/ص ٣٦١

(٤) أبو العلاء ولزومياته/ص ١١٧، ١١٤، ١١٥، ١١٦

و حيسد قد ينهي الأمر بالمعترب إلي فنون الموت، س إلي صبع
الوجود كله بصيغته، والتسليم بكل طرائقه ونتاجه^(١)

يجمع أبو العلاء بين الشعور بانعدام العلة الغائية للوجود، والشعور
بالعدمية فيجعل من الأول مطيته إلي الثاني، ويجعل من ذاته قربانا للموت الذي
يلحق بكل الوجود بعده: ^(٢)

بدر يصور، ثم يحق نوره

ويعرب المريخ ثم يعود

لا تحملن تقلا علي فأنني

وهنا، وقد أم الركوب صحود^(٣)

هذا البدر هو الإنسان في سعيه للاكتمال والاستدارة، والآلة
والالتفاف بينما يتربص له الوجود بـ (المحق). أن الاكتمال والمحق دائرة
المصير الإنساني المأساوي، وهما داعية أبي العلاء إلي إثارة الاستسلام
إلي الموت كما صور في الأبيات السابقة.

أن الشعور الجارف بالحياة، يستتبع اهتماما قلقا بالعدم، - كذلك فإن
المعاناة العميقة من الاغتراب تؤدي إلي تغليب فكرة العدم علي الحياة،
فهذه الثنائية: العدم والوجود هما ثنائية حياة أبي العلاء الخاصة: العجز
الجسدي، والإقبال للوجداني علي الحياة. هما ترجمة لهذه الثنائية ومعادل
لها.

وقد أنهى أبو العلاء ثنائية الوجود والعدم الميتافيزيقية مثلما أنهى
هذه الثنائية في حياته الشخصية، ففي الأخيرة أثر أبو العلاء الارتكان إلي
العزلة والحياة للشديدة الاتطواء، أما في الثانية، فقد لسبغ العدم علي الحياة
كلها، والعدم نظير للعزلة... نظير لللاشيء...

أن أبا العلاء استأثر به شعوره بذاته، إلي حد أنه أراد تعطيل للحياة
كلها، والوجود كله- في رواه وتأملاته- حين أوقفت حياته وتعطلت، فأوسع
من دائرة العدمية لتحيط بالحياة كلها أولها وآخرها، وغلف التاريخ

(١) الشخصية بين الحرية والعبودية/ ص ٤٥، ٤٦

(٢) اللامنهني / ص ٤٠

(٣) ل/١ ص ٢٥١

البشري كله بهذا المصير القائم الذي ارتضاه الكون له في سخرية متتدة،
وشجن مستسلم:

في العدم كتا، وحكم الله أوجدنا
ثم اتفقنا علي ثان من العدم
سيان عام ويوم في ذهابهما
كان مادام ثم أنبت لم يدم^(١)

واللزوميات بخاصة تمتلى بهذه المشاعر التي تجعل من العدم قانونا
مهيمنا علي الوجود.

حياة كجسر بين موتين، أول وثان، وفقد الشخص أن يعبر الجسر^(٢)

الإنسان يعيش حياة مخالطة، إذ تتسلف العدمية كل معني للأمل أو
الطموح فتتراءي آمال الإنسان أقسي ما يكون المستحيل:

نمر سراعاء، بين عديمين ، مالتا
لباب، كأنا عابرون علي جسر
وقد نامل الأمال، وهي منوطة
إلي ذنب السرحان، أو عنق النسر^(٣)

ويقود العدم رؤية أبي العلاء حتي يرى البشرية كلها "سكن البلي" هذا
البلي هو للحياة وهو الموت، وما بينهما، أنه الانتماء الوحيد:

لما اليقين فأننا سكن البلي
ولنا هناك جماعة فراط^(٤)

والإنسان في منظور هذه العدمية "خزف صدى" - إذا جاز هذا
لوصف- خزف تصنعه أفران المعاناة في الحياة، وحين يقذف إلي الموت
يتحطم لا شك علي صخرته:

ضحكنا، وكان الضحك منا سفامة
وحق لسكان البسيطة أن ييكونوا
تحطمتنا الأيام حتى كأننا
زجاج، ولكن لا يعاد، له سبك^(٥)

(١) ل٢/ص ٣١٣.

(٢) ل١/ص ٢٩٩.

(٣) ل١/ص ٣٧٩ وذات المعني في ل١/١٧٥.

(٤) ل٢/ص ٧٤.

(٥) ل٢/ص ١٤٧.

ضالة الإنسان، "وقابليته للكسر" هي الحتمية الحقيقية الوحيدة في هذه الحياة، أن الإنسان في شعر أبي العلاء المعري نطفة ضئيلة لا يرهق لحياة حين تهم بسحقه، بل تكفيه خطفه الموت تعدمها:

إنما المرء نطفة، ومداه خطفة
ليس عطفة حين يمضي

صاح، أن جال في الحوادث فكرى
صاح يا للأسى ينقر غمضي^(١)

هنا يثور كبرياء المغترب لمصيره الذي طالما تمنى لو اختاره بحرية، وهنا يتجلي هذا للكبرياء لأبي العلاء في معنى واحد، هو الإقبال على العدم في طواعية وشجاعة، هو احتضان للسحق، ولتخاذ الموت انتماء ووجهة بولي شطرها:

أنا صائم طول الحياة، وأنا
فطرى الحمام، ويوم ذاك أعيد

وهذا المعنى هو المعنى الحقيقي لما عناه أبو العلاء بالزهد " هذا الزهد ليس نقشا سطحيا، أو دعوى سانجة لتحديد النسل، وإنما هو دعوة للعدم، ضد الوجود، من حيث ما ديمتهما المطلقة"^(٢)

ومن خلال العدمية يثير أبو العلاء قضية عميقة هي " حرية الإنسان" أو حرية الوجود الإنساني، فيتساءل: هل للإنسان أن يرفض العدم، وأن رفضه هل له خيار آخر، هل للبشرية- إمكان التواجد في أرض غير أرضها، يقول:

أقمنا في الرحال، ونحن سفر
كأنا قاعدون علي الرحال

إذا ما كان أتمدنا ترابا
فأى الناس يرغب في اكتحال

وما سمحت لنا الدنيا بشئ
سوى تعليل نفس بالمحال^(٣)

أن كحل البشرية عدم (تراب) فكل ما نراه موت وكل ما نغوص فيه بلي: " أن للرجل بات يدرك إدراكا كيانيا، أنه لا حقيقة سوى انتهاء الديمومة، وتسيد العدم، حتى ما قد يبدو خيرا، أن هو في الحقيقة إلا الوهم، أنه يستشعر الغربة والدوار في نفسه، وفي الكون، وإذا تعذر علي الرجل أن تبرأ جراحات روحه بالسباحة في بحار التصوف النورانية، فقد انتهى إلي أنه لا خلاص إلا

(١) ٧٠ / ٢٢١

(٢) ٢٤١ / ١١، ٢٤٩ / ١١

(٣) ٢٣٥ / ٢٢

بالموت، الذي هو الحق واليقين." (١)

فحين يهيب أبو العلاء بالقافلة البشرية أن تتدارك أمرها قبل الموت،
ترتدي ألبانها لباس الألب الأسود، والكوميديا السوداء، والسخرية الفاجعة:

تلاف أمرك من قبل التلاف به فغاية الناس في دنياهم التلاف (٢)

إنه ليس رضي بالمصير، إنه انسحاق المهزوم وركود العاجز الذي قد
يظن به الهدوء والسكينة، بينما هو مانت في انفصاله عن عالم الحركة
والأحياء.

إن أبا العلاء الذي حرّمته عاقبته الحركة والقدرة والتصرف، لا يري
الدهر إلا متحركا قادرا متصرفا، ولا يري الإنسان إلا من منظور رؤيته لنفسه-
واقفا، خزفا متهشما في يد الدهر، بل أن خيوطه التي تعلقه في الهواء تأكل منه،
وتقتدر عليه:

والمرء يسخط ثم يرضى بالذي يقضي، ويوجد الزمان ويعدم

والرضي والسخط ليسا هنا بمعنيهما الظاهري، لأن أبا العلاء لم يدرك
أولهما- الرضي- بهذا الشكل في حياته، بل هما هنا التوقف والحركة، الفعل
واللافعل، الرضي في قاموس أبي العلاء النفسي- بعد أن خبر الأكم في الحياة-
ليس له إلا معني واحد هو أن يتحجر في الحياة، كي لا يستشعر ألما، أن يتقوّل
في قالب الجوامد ويفقد الاتصال بالمشاعر كلها:

تفكر، فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر

فياليتني حجر لا يحس بالخطب، أو طائر ما احتكر (٣)

ولأن الفكر أبان الحياة بشعة سوداء، يؤثر المغترب العدم علي هذه
للحياة:

رأي بنو الحزم أن العيش فائدة حتى استبانوا، فقالوا: حبذا التلاف

والتلاف لغة حادة تصف الموت والعدم، وكأنه يؤكد بحسم رغبته في

(١) للفكر والفن/ص ٢٩٨

(٢) ١٠١/٢

(٣) ٢٨٣/٢

التفتيت و لاشطار ، ومن ثم الصياح في رحم اللانينانية حتى لا يكون بم رجوع
أو احتمال للرجوع، أو إصلاح البنية التلف تعبير حاد عن شعور أكثر حدة
بالضياح.

العيبية إحدى النتائج الشعرية للاغتراب:

العيب هو افتقاد المنطق والنظام والنتيجة، هو معايشة الفوضى في كل الأنظمة المحيطة... والغريب الواقعي يستشعر غياب الحقيقة،^(١) أما الرواقي فيستشعر ارتكان الوجود إلى الصدقة المحضة^(٢) أما الوجودي المغترب فإن هذه المشاعر كلها تجتمع عليه، لأن العيب اغترابه، وأساس هام من أسس أدانته للعالم كله بدءاً من ذاته: " أن الفلسفة الوجودية تبدأ عادة من موقف يشبه موقف الغريب تماماً، ذلك أن نقطة البدء عند الوجوديين هي صدمة من الانفعال تهز الإنسان، فجأة عندما يدرك، أن الحياة لا معنى لها".^(٣) فالعيب هو تجريد الأشياء من قشرتها اللامعة، ثم النظر إليها مسجاة علي ظهر الحقيقة، فإذا هي فارغة جوفاء من كل جوهر.

والمغترب يصطدم في إقباله علي الكون بلا منطقية هذا الكون " اللامعقول والحنين البشري، واللاجدوى التي يلدها لقاءهما، هذه هي الصفات الثلاث في الدراما التي يجب بالضرورة أن تنتهي بكل ما في الوجود من منطق".^(٤)

فحين يتوجه الروح الإنساني لرشف كل ما في الوجود من زوايا، ومذاقات محسوسة وأخرى معنوية، حين يتوجه إلي الكون بهذه الكيفية فيصطدم بغموضه الكثيف وفوضاه الراسخة في نسيجه، تتحول هذه الكيفية السابقة المتفتحة للوجود إلي رفض للحياة، واقتناع بسخفها، واستشعار لعبء المواصلة اليومية معها، وتضييف ولادة كل يوم جديد إلي المغترب مزيدا من الجنون والاضلام والشجب للحياة الأصلية: " حين يصبح الخواء بليغا، حين تتحطم سلسلة الحركات اليومية، حين يفتش القلب عبثا عن الرابطة التي تربطه ثانية، فإن ذلك يشبه العلامة الأولى من علامات اللاجدوي".^(٥) وبهذا المعنى يتساءل المعري: ما الذي نستفيد

(١) (١/٤٣٧)

(٢) (٢/١٠٤)

(٣) محمد زكي العشماوي الأدب وقيم الحياة للمعاصرة ص ٥٣، ٥٤.

(٤) د. محمود رجب الاغتراب ج ١ ص ٧٧.

(٥) السابق/ص ٢١.

من هذه الدنيا بطول الرواج والتكبير^(١)؟

العبيثة تلد السأم والملال من الحياة، السأم المرتبط بالمعاناة، والتأمل الفكري السأم الذي هو في صميمه رفض لمجرد التفكير في منطقة الوجود وعمقه" أن أبا العلاء، الذي وجد نفسه، كما يخبرنا عنه بحق الأستاذ أمين الخولي، يقول عبر اللزوميات كلها دون مواربة، أنه توتف عن الانتماء لديناميكية الكون، ونتأ عن تشكيله النفسي والشعوري العام، وهو إذ عجز عن أن يكون في الكون قد أصابه الغثيان فسقط"^(٢).

والتاريخ البشري كله في عين أبي العلاء مراوحة بين مشاعر متضاربة، وتناقضات نفسية مرذقة لا تؤدي إلي جدوى أو الي جديد:

إذا فزعنا، فإن الأمن غابتنا

وإن أمانا، فما نخلو من الفزع

وشيمة الأنس ممزوج بها ملل

فما ندوم علي صبر ولا جزع^(٣)

وأبو العلاء مولع بتناقضات النفس البشرية، وتناقضات المجتمع الإنساني، وتناقضات الكون في عمومه- وهي مناخات نفسية لها ما يقابلها في الخصائص الفنية لشعره ورغم ولعه هذا فهو يري في التناقض المبتوث في طبيعة البشر، وطبيعة الدهر مبعث سأم، دليل عبث، لأنه يعكس الافتقار إلي نظام مطرد:

والشر في الأنس مبتوث، وغيرهم

والنفع مذ كان ممزوج به الضرر

تساكلوا في سجييات مضممة

وأشبهت لبوات الغابة الهرر

تتاقض في بني الدنيا، كدهرهم

يمضي المقيظ، وتأتي بعده القرر

إن وجدان الشاعر محتدم دائما، ورؤية المغترب لا تقف إلا عند أطراف الأمور، كذلك فإن الفرد المتميز في التاريخ البشري" لا يعرف الاعتدال في سلوكه"^(٤) والمعري يجمع الحياة كلها في صورتين

(١) ج١/٤٢٨

(٢) الفكر والفن في ادب ابي العلاء/ ص ٢٩٦

(٣) ج١/٤٢٨

(٤) ج١/٣٠٩

متناقضتين مدلا علي عبثها، وهو في احتدام اغترابه لا تستوقفه الطباع
الفردية، بل تستوقفه العصور والدول والشرائع، والديانات، فيري الأشياء
كلها تتناسخ، والأيام كلها تتوالي بذات السحنة والرائحة:

وكم شاهدت من عجب وخطب
تغير دولة، وظهور أخرى
ومزّ الدهر بالإنسان يسلي
ونسخ شرائع، وقيام رسل^(١)

الحياة كلها من واقع هذه الرؤية متشابهة البدايات والنهايات،
والفوضى، أنه يعاني الشعور بالعبث الذي يدفع إلي الجنون أو الموت، والسأم
الشره إلي الفناء:

وآخر الدهر يلقي مثل أوله
فجهزني، لحاك الله والدة
والصدر يأتي علي مقداره العجز
علي أتبع أصحابي فأنتجز^(٢)
هنا يكون الارتكان إلي الصمت منطقيا ذا حجة قوية، إذ كيف يتسنى
التفرد في كون لا يغير رداءه، ولا يدرك أبجديات النظام والمنطق؟
إلا إنما الأيام أبتاء واحد
فلا تطلبن من عند يوم، وليلة
وهذي للليالي كلها أخوات
خلاف الذي مرت به السنوات^(٣)

بل أن الموت نفسه في هذه الرؤية المتمردة الساخطة الممتلئة
بالسأم يبدو حائثا رتيبا، وألفة مقببة، فموتنا يتبعه موت أولادنا، يسبقه
موت آبائنا، دون أي استحداث لسلوك أو معني آخرين:

نزول كما زال أبؤنا
ونجم يغور، ونجم يري^(٤)
ويبقى الزمان علي ما تري
نهار يضي، وليل يجي
أن السأم في رؤية المفترب غذاء الحياة الرئيسي لكل من فيها، أما

(١) ل/١/٣٠٩

(٢) ل/٢/٢٣٩ وذلك المعني ل/١/٤٠٦

(٣) ل/٢/ص ٣

(٤) مقط للزند بيروت ص ٢١٩

الحياة ذاتها، كمعنى مجرد، وشئ جامد فهي لا تستشعر هذا السأم لذلك
فالانفصال عنها نتيجة طبيعية لانفصالها عنا.

وما فتنت، وأيامي تجدد لي حتى مللت، ولم يظهر بها ملل

أن سأم أبي العلاء سأم من الحياة المزيفة المشوهة التي عاشها، وليس
سأما من الحياة الأصلية، لأنه ببساطة لم يذق الأخيرة:

اشفتت من عبء البقاء، وعابه ومللت من رأي الزمان وصابه^(١)

" هل كان الوجود الإنساني في رؤية أبي العلاء لا يعدو أن يكون
مجرد نزوة يستحيل علي الإنسان أن يبررها عقليا؟ هذا هو الواضح علي
الأقل".^(٢)

وليس من داع للعبثية أعظم من الشعور بمحدودية المعرفة الإنسانية،
وسذاجتها، أو علي الأقل عدم اقتدارها علي فك رموز الوجود، أن نقصان هذه
المعرفة يجعلها تتضارب في أجزائها بين شخص وآخر^(٣)، بين جيل وآخر...
ونقصان المعرفة يعني انعدام اليقين، ويعني الارتحال إلي الموت حيث
يفتقد الأمان في الحياة.

وقد عدم اليقين في زمان حصلنا من حجاه علي التنظيم
فقلنا للهبير: أنت ليث فشك وقال: علي أو كاني
وضعت علي قرا الأيام رحلي فما أنا للمقام بمطمئن^(٤)

وانعدام اليقين مثلما هو داعية إلي الثورة والتمرد علي الحياة، هو
أيضا داعية العبث بكل القيم، وعلي رأسها قيم المعرفة والحقيقة، وقيم
الإدراك، لأن العبث وقوف في منطقة الظل، حيث لا رأي يمكن تحققه،
ولا شئ آخر سواه ملجأ:

(١) ل ١ / ١٨١ وذات للمعني ل ١ / ٢٢٨، ٢٣٦.
(٢) ق ٢ / ٧١٥ الأري العسل الصاب المر
(٣) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري/ ص ٣٤١، ٣٤٢ بتصرف
(٤) مع أبي للعلاء في سجنه / ص ١٤.

أما اليقين، فلا يقين، وإنما أقصى اجتهادي أن أظن واحداً^(١)

وفي مدينة العبث تختلط الأشياء وتتبادل المقاعد، ويظهر الإيمان باللامقياس، أو (الأنوميا) أو اللامعيارية. فكان العبث مؤد إلي إنكار العلة الغائية للوجود، وناتج كذلك عنها:

إذا سألوا عن مذهبي فهو بين وهل أنا إلا مثل غيري أبله؟^(٢)

إن الانسحاق والعجز، والشعور بالضالة قبالة وجود يتسم بالنقيض من ذلك، يسلم المقترَّب إلي مواقف غاية في التعقيد، فهو علي الصعيد النفسي يلمس أطراف المشاعر والاحساسات بقوة، أما علي مستوي الفعل أو الموقف الإيجابي في الحياة فإنه يؤثر منطقة الوسط التي ليست هنا بمعنى الاعتدال، بل بمعنى انعدام الهوية، وإيثار الصمت، وتفضيل الظلام.^(٣)

وقول أبي العلاء السابق: وهل أنا إلا مثل غيري أبله يمثل ركيزة وجعه الميتافيزيقي التي يبرر بها موقفه في الشطر الأول من ذات البيت: "وأن سألوا عن مذهبي فهو بين" حيث- يصبح تصور المعرفة الإنسانية برهانا علانيا علي عبودية الإنسان، وعجزه عن التحرر^(٤).

والموت - بالطبع- أحد نواعي شعور المعري بالعبث، لأن الموت استلاب للحرية الإنسانية، كشف لتفاهة الإنسان، نفي للقيم والعمل، أن أبا العلاء "هو الرجل الذي كان من أشد الناس تبرا بالزمان، والمكان، ونقمة علي حياة، كان يحسبها جناية وأثما، لأنها في اعتقاده، أضيق من المكان، وأقصر من الزمان، لها أول فيه بعض الحلاوة، ولها آخر كله مرارة، ومرارة آخرها تحو حلاوة أولها". فتفقد الطعوم والأشياء طزاجتها، ورونقها:

إذا كان الثراء إلي زوال فكل ممول منا حريب^(٥)

" أن اللامعني ليس هو فقط خارجنا، بل هو في داخلنا".^(٦)

(١) ل٢/ص ٣٨٥.

(٢) ل٢/ص ٣١.

(٣) ل٢/ص ١٥٣ وذات للمعني ل١/٢٩٩.

(٤) مع أبي العلاء في مجته /ص ١٤.

(٥) / محمد زكي العثمالي / فلسفة الجمال في الفكر المعاصر / ص ١٧٥.

(٦) ميخائيل نعيمة. رهين المحبسين. للهلال يونيو ١٩٢٨م/ص ٨٧٢.

أن عرلة العمي التي احاطت بأبي العلاء، خلقت حوله من البداية جوا من العبد، واللاجدوى، لذلك نانت عزلته المادية تأكيدا علي عرلة العمي، ونتيجة لها، كانت قمة من قمم شكوكه في الوجود، ورفضه للعالم المحيط، كانت عكوبا علي الداخل، ورفضاً للخارج، وخالقا لكون خاص، حيث الكون الحقيقي المحيط غاية في الفوضى.

للعزلة العلانية جهد فردي متميز لمحاولة انقاذ ذات عاجزة، دامية، تحاول الحفاظ علي شرفتها، ويوتوبياها المستحيلة.

فهل معني هذا أن ابا للعلاء اطمأن إلي حياة الاغتراب؟ هل اطمأن إلي أن الحياة "تعاش بصورة أفضل إذا لم يكن لها معني؟" (١)

أم أنه افقد الشرائط التي تحقق بها هوية الإنسان.. تلك الهوية التي أن لزمها الصراع في الحياة، فإنه يلزمها أيضا - وهذا الأهم - أن تقتصر في هذا الصراع علي " وجود مبدأ مظلم عنيف لا عقلي، كما تقترض القدرة في الروح علي معاناة الانفعالات العارمة، وكذلك تقترض أيضا انتصار الروح للنهائي الدائم علي هذا المبدأ اللامعقول." (٢)

أنه من الواضح أن أبا العلاء فشل في تحقيق التوازن بين معطيات الوجود له، وما يريده من هذا للوجود، وكان ابتلاءه بفقد البصر صغيرا كان بمثابة رمز من الوجود، أو رسالة من الوجود تنبئه بما صيغانيه من مصارعة الحجب والظلام والعجز طيلة حياته.

كان فقد البصر لأبي العلاء فقدا للتوازن في الحياة، فقدا للصلة بينه وبين الحياة، كأن جسرا للاغتراب، لأنه شئت لديه قوى الاستقبال والإدراك والفعل " أن ويلسون لا يعتقد أن الاعتماد علي التفكير أو العقل المجرّد قادر علي حل مشكلة الفريب، فإن ثمة إمكانات أخرى في الإنسان لا بد من استغلالها، وتطورها، ليكشف عن مبررات للشعر، الذي أحاق بالبشرية، والذي هو في الحقيقة سر من أسرار أزمة الفريب الكبري، وأن هذه الإمكانيات تتحصر في قدرة الإنسان علي الاستفادة من قوى ثلاث

(١) ٨٣ / ٢

(٢) اسطورة سيزيف / ص ٦٢

ذكرها نيتشه، وايدها ويلسون، بكل اهتمام هي. قوة الإرادة، وقوة العقل، وقوة العاطفة وأن إيجاد الوحدة بين هـ القوى هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي، أو التكامل النفسي عند الغريب".^(١)

رغم هذا فإن للاعتراب وجهها آخر خفي هو أنه في حد ذاته ألفة للمغترب لأنه عالمه الوحيد المتميز الجديد الراقي " أن أريد هو أن أثير المتناقضات، وكل شيء هو منظم بحيث أنه يأتي بذلك السلام المسموم الذي هو وليد اللاتفكير واللامبالاة، وإغفاء القلب والاعتزال القاتل".^(٢)

فقد يستمرى المغترب تلك المدينة التي صنعها من جوعه، وهزاله، والتي لا يمدّها الوجود برضاعه، قد يجد المغترب في تلك المدينة تميزه الذي كان افتقاده، مدخله إلى الاغتراب.

(١) فلسفة الجمال / ص ١٩٠

(٢) أسطورة سيزيف / ص ٢٩